الأعلى المودودي

الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية

مؤسسة الرسالة

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٢٩٥٥٠١ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

وبعد فها نحن اولاء نقدم اليوم الى قراء العربية محاضرة جليلة ورسالة نفيسة للاستاذ السيد أبي الأعلى المودودي – امير الجماعة الاسلامية في باكستان . ولعمر الحق ، انها محاضرة جليلة المعنى ، خطيرة المبنى ، لانها تبحث في موضوع هام وتتناول بالدرس والتحليل مسأله طالما أشكل على المفكرين حلها واستعصى على أولي العلم فك معضلتها . وذلك ان الناس – أولاً – يتحيرون في ارتفاع كلمة الفكر وانتكاس راية الاسلام في كل مكان ، ثم يشكل عليهم قول الله تعالى : (وأَنْتُمُ الأَعلَوْنَ إنْ كُنْتُمْ مؤْمِنِينَ).ويجرهم هذا وذلك إلى تأويلات بعيدة واقوال واهية ضعيفة . ومن الناس[١]

(١) اشارة الى رجل في باكستان ، يتزعم حزباً سياسياً إلى الآن ، وكتابه (تذكرة) بالعربية والاردية مشحون بمثل هذه الترهات .

من اغتر بهـذه الحال وبمثل تلك الآي الكريمة فذهب يقول ان الاوربيين هم المسلمون الحقيقون لأنهـم هم الغالبون ، واسس حزباً وقام بحركة عنيفة ، ثم لم يرجع الا بخفي حنين .

ألقيت هذه الخطبة في مؤتمر الجماعة الاسلامية السنوي المنعقد في الـ ٨ /٥/ ١٣٦٤هـ ٣١/٤/ ١٩٤٥ م. امـام جمع من أعضاء الجماعة وأنصارها والمتأثرين بدعوتها ، في دارها المركزية الواقعة في شرقي بنجاب ، وكان كاتب هذه السطور ممن حضر الاجتماع (المؤتمر) واستمع الى هذه الخطبة المرتجلة، ولم ينس للآن ما كان لها من أثر عميق في نفوس الحاضرين .

أكتب هذه الكلمة ، وأرى بين يدي صور الاصدقاء والزملاء والاخوان ماثلة ، وعلى وجوههم أثر مما في قلوبهم من التأثر البالغ والتلهف الشديد على صحة الخطيب ومستقبل الدعوة في بلاد الهند ، اذ جاءت في ختام الخطبة كلمات بهذا الشأن . وجملة القول أنها كانت خطبة تاريخية في تاريخ الدعوة وكان لها أثرها المرجو .

قلت انها كانت خطبة مرتجلة ، الا أنها دونت في ما بعد ، وأعاد الاستاذ فيها النظر ونشرت بالاردية ، لغة الخطابة والكتابة ولسان عامة مسلمي هذا القطر . وعني بتعريبها

الأخ العزيز السيد محمد عاصم الحداد ، زميلي في دار العروبة ، وراجعها هذا العاجز ، فعسى أن تنال حظوة لدى قراء العربية ويعمّ نفعها .

والله نسأل أن يوفقنا لسبيل الخير والرشاد ويجنبنا مزالق الاقدام ومسالك الزلل والفساد . فانه هو المرجع وبيده كل شيء وعليه التكلان .

بلدة راولبند (باكستان)
في ١٣٧١/١٢/٢٣ ه

مسعود الندوي

الاسس الاخلاقية للحركة الاسلامية

لعله قد تبين لكم من كتاباتنا ورسائلنا أن غايتنا النهائية التي نقصدها من وراء ما نحن بصدده الآن من الكفاح انما هي « احداث الانقلاب في القيادة » واعني بذلك أن أقصى ما نبتغي الوصول اليه والظفر به في هذه الدنيا أن نطهر الأرض من أدناس قيادة الفسقة الفجرة وسيادتهم ، ونقيم فيها نظام الامامة الصالحة الراشدة . فهذا السعي والكفاح المتواصل نراه أكبر وأنجح وسيلة موصلة إلى نيل رضا الرب تعالى وابتغاء وجهه الاعلى في الدنيا والآخرة .

ومن دواعي الأسف اننا نشاهد الناس اليوم جميعاً – المسلمين منهم وغير المسلمين – غافلين عن هذا الذي جعلناه غايتنا ومطمح أبصارنا . اما المسلمون ، فلأنهم يعدونه غاية سياسية بحتة ولا يكادون يفطنون لمكانته وأهميته في الدين . وأما غير المسلمين ، فبمانشأوا عليه من التعصب على الاسلام ولجهلهم وقلة معرفتهم بتعاليمه ، لا يعلمون أصلاً أن

قيادة الفجار والفساق انما هي منشأ جميع الكوارث والنكبات التي مني بها الجنس البشري ، وان سعادة البشر وغبطته انما تتوقف على أن يكون زمام امور الدنيا بايدي الصالحين العادلين. فكل ما نشاهده اليوم في الدنيا من الفساد والظلم والطغيان والفوضى الشاملة العالمية في الاخلاق البشرية ، وما سرى من السم الفتاك في عروق الحضارة والعمران والسياسة البشرية ، وان جميع وسائل الأرض وسائر القوى التي ابتدعتها العلوم البشرية تستعمل في القضاء على الانسان واهلاكه وتدميره بدل أن تستخدم في اسعاده واعداد الوسائل والأسباب لفلاحه وهنائه وغبطته ، فانما تعود تبعة كل ذلك على أن الأرض، وان لم تكن خالية من الرجال ذوي الصلاح والعفاف والامانة ، قد استبد بزمام الأمر فيها رجال انحرفوا عن الله تبارك وتعالى وانغمسوا بأجمعهم في عبودية المادة ، وتكالبوا على شهوات هذه الدنيا الدنيئة . فان أراد أحد اليوم أن يطهر الأرض ويستبدل فيها الصلاح بالفساد ، والامن باضطراب ، والاخلاق الزكية بالاباحية ، والحسنات بالسيئات ، لا يكفيه أبداً أن يدعوهم الى الخير ويعظهم بتقوى الله وخشيته ويرغبهم في الأخلاق الحسنة . بل من المحتوم عليه أن يجمع من عناصر الانسانية الصالحة ما يتمكن من جمعه ويجعل منها كتلة

متضامنة وقوة جماعيـة تمكنه من انتزاع زمام الامر من الذين يقودون موكب الحضارة في الدنيا ، واحداث الانقلاب المنشود في زعامة الارض وامامتها .

اهمية الزعامة وخطورتها :

وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحيـاة الانسانية ، لا يخفى عليه أن المسألة التي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادها ، انما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام امرها . وذلك كما نشاهد في القطار أنه لا يجري إلا الى الجهة التي يوجهه اليها سائقه ، وان لا بد للركاب أن يسافروا – طوعـاً أو كرهاً – إلى تلك الجهة نفسها . فكذلك لا يجري قطار المدنية الانسانية الا الى جهة يوجهه اليها من بأيديهم زمام أمر تلك المدنية . ومن الظاهر البين ان الانسانية بمجموعها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تأبى السير على تلك الخطة التي قد رسمها الذين بأيديهم وسائل الأرض وأسبابها طراً، ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمة الأمر وبيدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الانسانية ، وتتعلق بأذيالهم نفوس الجمهور وآمالهم ، وهم يملكون أدوات تكوين الأفكار والنظريات وصوغها في قوالب يحبونها ، واليهـم المرجع في تنشئة الطباع الفردية وانشاء النظام الجماعي وتحديد القيم الخلقية . فان كان هؤلاء الزعمـاء والقواد ممن يؤمنون بالله ويرجون

حسابه ، فلا به لنظام الحياة بأسره أن يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح ، وأن يعود الأشرار الخبثاء إلى كنف الدين ويصلحوا شؤونهم . وكذلك تنمو الحسنات ويزكو غراسها ، وأقل ما يكون من تأثير المجتمع في السيئات انها لا تربو ، ان لم تمحق وتنقرض آثارها. وأما إذا كانت هذه السلطة ، سلطة الزعامة والقيادة والامامة بأيدي رجال انحرفوا عن الله ورسوله واتبعوا الشهوات وانغمسوا في الفجور والطغيان ، فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء، ويدب دبيب الفساد والفوضى في الأفكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والأخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمتها ، وتنمو السيئات ويستفحل أمرها ، وتأبى الأرض أن ترحب بالحسنات ، ويضن الماء والهواء أن يفيضا عليها شيئاً من القوت ، وتمتلىء الأرض ظلماً وجوراً . ففي مثل هذا النظام يسهل على المرء أن يسلك سبيل الشر ويصعب عليه أن يثبت على طريق الخير فضلاً عن أن يمشي عليها ويسير، شأنه كشأن السائر في موكب من المواكب المحتشدة ، لا يحتاج الى بذل أي شيء من الجهد إذا أراد التوجه إلى الجهة التي يقصدها الجمع ، بل هو يندفع اليها بدافع من الجمع قصداً ومن غير

قصد . وأما إذا أراد أن يتوجه إلى جهة تخالف جهة الموكب، فلا يكاد يقدر أن يخطو بضع خطوات ولو استنفد فيها وسعه ، ويكون من شأنه أنه كلما تقدم خطوة ، دفعته موجة من الزحام الهائل خطوات إلى الوراء. فكذلك النظام الجماعي إذا بدأ يسير على سبل الكفر والعصيان بزعامة رجال من العصاة سهل على الأفراد والجماعات أن يسلكوا سبل الشر من غير أن يبذلوا شيئاً من جهودهم البتة. واما إذا أرادوا السير على طريق غير ذلك الطريق المعوج ، فلا يمكنهم أن يتقدموا ولو بضع خطوات لما يواجهونه من مقاومة الزحام الجارف المعارض الذي يؤخرهم أميالاً وفراسخ إلى الوراء مهما استنفدوا من جهودهم للوقوف في وجهه.

وذلك الأمر لم يعد بعد حقيقة نظرية غامضة تحتاج إلى برهان ، بل الحوادث الماضية قد صيرته حقيقة ظاهرة لا يمكن الجحود بها أو المكابرة فيها لكل من أوتي بها نصيباً من العلم والمعرفة. وحسبكم شاهداً على ذلك ما حدث في بلاد الهند في القرن الماضي من تبدل عظيم وانقلاب مدهش. أفلا ترون كيف تبدلت الأوضاع وتغيرت الآراء والنظريات وتحولت الطبائع والسجايا المتوارثة ، وتقلبت مناهج التفكير وأساليب النظر ، وطرأ الانقلاب والتغير على مقاييس الأخلاق

والمدنية وموازين الشرف والفخار ؟ فهل بقي فيهـا شيء سالماً من عواصف التغير والانقلاب ؟ فماذا ترى سبب التغير والانقلاب الواقع في هذه الديار بين عشية وضحاهـا ؟ أو يسعكم أن تبينوا له سبباً غير أن الذين كان بيدهم زمـام شؤون هـذه البلاد وكانوا متبوئين فيهـا مناصب الزعامة والامارة طبعوا أخلاق أهلها وعقولهم وغرائزهم ومعاملاتهم ونظام مدنيتهم بطابعهم الخاص، وصاغوهـا فيما شاءوا من القوالب المعوجة ؟ ثم سرح النظر في الذين قاموا في وجه هذا الانقلاب ولم يألوا في مقاومته جهداً إلام كان مصيرهم؟ أوُفقوا أم أخفقوا في مسعاهم ، وإلى أي حـد ؟ أوليس من باب الأمر الواقع المؤلم ان الذين كانوا في طليعة المقاومين بالأمس نجد لليوم أبناءهم وأحفادهم مندفعين في تيار المدنية الحاضرة وقد دخل في بيوتهم من موبقاتها وشنائعها مـا كان منحصراً بالأمس خارج البيوت ، في الأسواق والأندية ؟ أوليس مما وقع وتحقق أن كثيراً من بيوتات العلم والشرف التي يضرب المثل بها وبأهلها في الزهد والورع قد نشأت فيها اليوم ناشئة قد أفضى بها الضلال والزيغ إلى الزندقة والالحاد والكفر بالله ورسوله واليوم الآخر ؟ أو يبقى عند أحد بعد هذه التجارب المتتابعة والمشاهدات الماثلة للعيان

من منزع للشك أن مسألة القيادة والزعامة انما هي مسألة المسائل في الحياة الانسانية وأصل أصولها؟ وأهمية هذه المسألة وخطورة شأنها ليست بأمر مستحدث اكتسبتها في هذا العصر، وإنما هي مقرونة ومنوط بها منذ أقدم الأزمنة، وناهيك من شاهد بالقول السائر «الناس على دين ملوكهم» ومن ثم تكرر في الحديث أن علماء الأمة وكبراءها هم المسؤولون عن اصلاح شأنها وفساد أمرها، لما يمتلكون من ناصية الأمر ويحملون بأيديهم من لواء الزعامة.

غاية الدين الحقيقية. اقامة نظام الامامة الصالحة الراشدة

وأرى أن قد تبين لكم مما تقدم من الشرح والبيان ما لهذه المسألة من الأهمية البالغة في الدين. والظاهر أن أول ما يطالب به دين الله عباده أن يدخلوا في عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقياد حتى لا يبقى في أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير الله تعالى. ثم يتطلب منهم ألا يكون لحياتهم قانون إلا ما أنزله الله تعالى وجاء به الرسول الأمي الكريم ﷺ. ثم ان الاسلام يطالبهم أن ينعدم من الأرض الفساد، وتستأصل شأفة السيئات والمنكرات الجالبة على العباد غضب الله تعالى وسخطه.

وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشر وتسيير شؤونهم في الأرض بأيدي أئمة الكفر والضلال ، ولا يكون من أمر أتباع الدين الحق وأنصاره إلا أن يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم؛ يذكرون الله قابعين في زواياهم منقطعين عن الدنيا وشؤونها مغتنمين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة عليهم من المسامحات والضمانات. ومن هنا يظهر ما للامامة الصالحة واقامة نظام الحق من أهمية خطيرة تجعلها من غايات الدين وأسسه . والحق ان الانسان لا يمكنه أن يبلغ رضى الله تعالى بأي عمل من أعماله إذا تناسى هذه الفريضة وتقاعس عن القيام بها . ألم تروا ما جاء في الكتاب والسنة وتكرر من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة ، حتى ان الانسان ليستوجب القتل إذا خرج من الجماعة ولو قيد شعرة وان صام وصلى وزعم انه مسلم ؟ وهل لذلك من سبب سوى أن غرض الدين الحقيقي وهدفه إنما هو اقامة نظام الحق والامامة الراشدة وتوطيد دعاته في الأرض ؟ وكل ذلك يتوقف تحققه على القوة الجماعية . والذي يضعضع القوة الجماعية ويفت في عضدها . يجني على الاسلام وأهله جناية لا يمكن جبرها وتلافيها بالصلاة ولا بالاقرار بكلمة التوحيد . ثم انظروا

إلى ما كسب « الجهاد » من المنزلة العالية والمكانة الرفيعة في الدين ، حتى ان القرآن ليحكم « بالنفاق » على الذين ينكلون عنه ويثاقلون إلى الأرض منه . ذلك ان « الجهاد » هو السعي المتواصل والكفاح المستمر في سبيل اقامة نظام الحق ، ليس غير . وهذا الجهاد هو الذي يجعله القرآن ميزاناً يوزن به إيمان الرجل واخلاصه للدين ، وبعبارة أخرى أنه من كان يؤمن بالله ورسوله ، لا يمكنه أن يرضى بتسلط نظام الباطل أو يقعد عن بذل نفسه وماله في سبيل اقامة نظام الحق . فكل من يبدو في أعماله شيء من الضعف والاستكانة في هذا الباب فاعلم انه مدخول في إيمانه مرتاب في أمره . فكيف ينفعه عمل من أعماله بعد ذلك؟

والمقام لا يتسع للافاضة في هذه المسألة وتفصيل القول فيها . إلا ان الذي بينته آنفاً اراه كافياً لايضاح هذه الحقيقة المهمة ، وهي ان اقامة الأمامة الصالحة في أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الاسلام . فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق ، لا ينتهي عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لافراغ حياته في قالب الاسلام ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب ، بل يلزمه بمقتضى

ذلك الايمـان ان يستنفد جميع قواه ومساعيه في انتزاع زمـام الأمر من ايدي الـكافرين والفجرة الظالمين حتى يتسلمـه رجال ذوو صلاح ممن يتقون الله ويرجون حسابه ، ويقوم في الأرض ذلك النظام الحق المرضي عند الله الذي به صلاح أمور الدنيا وقوام شؤونها .

ثم اذا لم يكن من الممكن تحقيق هذا المقصد الأسمى الا بالمساعي الجماعية ، لم يكن بد من أن تكون في الأرض جماعة صالحـة تؤمن بمبادىء الحق ، وتحافظ عليهـا ولا تكون لها غايـة في الحياة الا اقامـة نظام الحق وادارة شؤونه بغاية من الاهتمام والعناية . ولعمر الحق انه ولو لم يكن على وجـه الأرض إلا رجل واحد مؤمن ، لما جاز له أن يرضى على نفسه بتسلط نظام البـاطل ، حينما يجد نفسه وحيداً فاقـــداً للوسائل اللازمة ، أو أن يحاول التستر وراء الحيل الشرعية كالاقتناع « بأهون البليتين » أو أن يساوم نظام الكفر والفجور السائد في إيمانـه ، ويقنع بحياة موزعة بين الكفر وطاعة الله . بل الحق انه لا يكون أمامه إلا طريق واحد : وهو أن يدعو الناس كافة إلى منهاج الحياة الذي يرضى به الرب تعالى. فان لم يجب لدعوته أحد ، فان قيامه على الصراط المستقيم واستمراره

في دعوة الناس حتى يلقى ربه ، خير له الف مرة من أن يتنكب الصراط الحق ، ويهتف بنعرات تهش لها وتفرح بها الدنيا المتسكعة في بيداء الضلال والغواية ، أو يأخذ في المشي على طرق جائزة بزعامة الكفار . وان وجد من عباد الله رجالاً يستمعون لقوله ويلبون دعوته ، فعليه أن يؤلف منهم كتلة لا يكون من همها الا استنفاد جميع القوى الجماعية في سبيل تحقيق تلك الغاية التي نحن بصددها.

هذا ما اراه مقتضى الدين الإلهي حسب ما رزقني الله من معرفة كتابه العزيز وسنة رسوله الكريم ﷺ . وهذا ما يتطلبه الكتاب العزيز ، وهذه هي سنة الأنبياء والرسل . واني على مثل اليقين من ذلك ، ولا اراني متزحزحاً عن هذه العقيدة وهذا الرأي ما دام كتاب الله يؤيدني وسنة الرسل الكرام من ورائي تأخذ بيدي وتحفزني للعمل والجد .

سنة الله تعالى في باب الامامة في الارض :

وإذا أدركنا غاية مساعينا ومجهوداتنا هذه ، فعلينا أن نعرف وندرك سنة الله تعالى التي لا نبلغ هذه الغاية الا بموجبها . ان هذا الكون الذي نعيش فيه إنما أوجده الله تعالى على قانون معين ، وقدر لكل شيء فيه ضابطة من الأمر

لا يمكنه الانحراف عنها . وليس من الممكن ان يتحقق في هذا الكون سعي من المساعي بمجرد الرغبات الطيبة والنيات الخالصة ، ولا ان يؤتي ثمراته ببركات النفوس القدسية، بل لا بد له من استيفاء تلك الشروط والمقتضيات التي قررها القانون الالهي لتحقيق مثل هذه المساعي . فـان كنت زارعاً في حقلك مثلاً ، فمهما تكن قد بلغت من طيب الخلق والسيرة الطاهرة مبلغاً عظيماً وأكثرت من التسبيح والتهليل فلن تنبت لك حبة ولن تؤتي ثمرتها إلا إذا اتبعت وراعيت في مسعاك ذلك القانون الالهي الذي سنه الله تعالى لايتاء الزرع والحقول ثمراتهـا . وكذلك من المستحيل أن يبرز إلى الوجود ذلك الانقلاب المنشود في نظام الامامة الذي جعلتموه نصب أعينكم في الحياة وتتطلع اليه نفوسكم بمجرد الأدعية الطيبة والأماني المعسولة ، بل لا بد لكم لتحقيقه أن تحيطوا علماً بذلك القانون الالهي الذي تقوم بموجبه الامامة والسيادة في الأرض وتستوفوا جميع شروطه . وهذا موضوع مهم ذو خطورة ، قد الممت به غير مرة من قبل في كتاباتي ومحاضراتي ، ولكني أحب أن أتناوله بالشرح والايضاح في هذه المحاضرة ، لأنه لا تستبين لنا السبل إلا بالاحاطة بها علماً ومعرفة .

إنكم إذا تأملتم في الانسان وتدبرتم وجوده في الدنيا ، ظهر لكم أن وجهتين متناقضتين تختلفان وتزدوجان معاً .

فالوجهة الأولى أن له وجوداً طبيعياً وحيوانياً تجري عليه نفس تلك القوانين التي تجري على سائر الطبيعيات والحيوانات في هذا العالم . وهذا الوجود يتوقف عمله على الادوات والوسائل والأسباب المادية والأحوال الطبيعية التي ينحصر فيها سائر الموجودات الطبيعية والحيوانية . ولا يمكن لهذا الوجود أن يأتي بعمل إلا في ضمن القوانين الطبيعية وبواسطة الأدوات والوسائل والأحوال الطبيعية . وجميع القوى في عالم الأسباب لها تأثير يوافقه أو يخالفه في أعماله .

والوجهة الأخرى التي هي متجلية في الانسان أنه من البشر أي أن له وجوداً خلقياً لا يذعن للطبيعيات بل يسيطر عليها ويحكم فيها . حتى أنه ليستخدم جسد الانسان الحيواني والطبيعي كآلة من آلات العمل ويحاول الاستيلاء على أسباب الدنيا الخارجية والتصرف فيها . وأما قواه العاملة ، فإنما هي تلك الصفات الخلقية التي أودعها الانسان من لدن ربه الكريم وانما تحكمه القوانين الخلقية دون القوانين الطبيعية .

الاخلاق مناط رقي الانسان وانحطاطه :

وهاتان الوجهتان تتعاملان في الانسان مشتركتين ، وعلى الوجه العمومي يتوقف نجاحه واخفاقه ورقيه وانحطاطه على القوى المادية والخلقية معاً . وهو لا يكاد يستغني عن القوة المادية ولا عن القوة الخلقية . فإذا ما قدر له النجاح وبلغ أوجَ الكمال والرقي ، فبهاتين القوتين . وإذا مـــا خسر وانحط ، فلأنه فقد هاتين القوتين أو أصبح نصيبه منهما أقل من نصيب غيره . ولكنكم إذا تأملتم المسألة تأملا وسبرتم غورهـا تبين لـكم أن القـوة المنفذة الفاصلة الحقيقيـة في الحياة هي القوة الخلقية لا المادية . ولا ريب أن الحصول على الوسائل المادية واستخـدام الآلات الطبيعية ومسايرة الأسباب الخارجية للعوامل الداخلية أيضاً من الشروط المستلزمة للنجاح . وما دام الانسان يعيش في هذا العالم الطبيعي ، فانـه لا يمكنه الاستغناء عن هـذه الشروط . ولكن الحق ، مع كل ذلك ، أن الذي يرفع الانسان ويضعه والذي له الحظ الأوفر واليد النافذة في سعادة الانسان وشقائه ، ان هي إلا « القوة المعنوية » . ومما لا يخفى عليكم أن الانسان لا يسمى إنساناً لأجـــل جسمانيته وحيوانيته ، بـــل لأجل صفاته الخلقية . وليس مما يميز الانسان من غـيره

من الموجودات في هذا العالم ، أنه يحتاج لجسده إلى محل يحله، أو لأنه يتنفس ويأتي بالنسل والولد ، بل الميزة التي تفرق بينه وبين سائر الموجودات وتفضله عليها جميعاً ولا تجعله نوعاً مستقلاً عنها فقط بل وخليفة الله في الأرض أيضاً ، انما هي احتيازه للصلاحية الخلقية والتبعة المعنوية وتفرده بهما . فاذا كانت الأخلاق هي جوهر الانسانية وملاك أمرها ، فلا بد من الاقرار بأن الأخلاق لها القول الفصل في صلاح الحياة الانسانية وفسادها .وأن القوانين الخلقية هي التي تسيطر على رقي الانسان وانحطاطه .

فاذا استعرضنا الأخلاق بعد إدراك هذه الحقيقة ، وجدناها منقسمة إلى شعبتين مهمتين : الأخلاق الانسانية الأساسية والأخلاق الاسلامية .

الاخلاق الانسانية الأساسية:

والمراد من الأخلاق الانسانية الأساسية تلك الصفات التي يقوم عليها أساس وجود الانسان الخلقي . وهي تشتمل على سائر الصفات التي لا بد منها لفلاح الانسان ونجاحه في هذه الدنيا . سواء أكان عمله وكفاحه لغاية صحيحة أو غير صحيحة . وسواء في بابها أيؤمن صاحبها بالله واليوم الآخر والوحي والرسالة أم لا ؟ وهل هو متحل بالطهارة النفسية

والنية الخالصة والعمل الصالح أم لا ؟ وهل كان سعيه وجهاده وراء غاية طاهرة ومقصد نزيه أم وراء غاية دنيئة وغرض عاجل ؟ فكل من تحلى بهذه الأخلاق واستوعبها في نفسه استيعاباً ، فلا بد أن يرى ثمرات جهوده يانعة عما قريب ويجيء نجاحه في هذه الدنيا كفلق الصبح ، فيبز ويسبق الذين لا يتحلون بهذه الأخلاق ، أو كان حظهم منها أقل وأنقص من حظه . وذلك بصرف النظر هل كان صدره مستضيئاً بنور الايمان أم لا ؟ وهل كانت حياته طيبة أم غير طيبة ؟ وهل يبتغي من وراء سعيه الخير أم الشر ؟ إن الانسان - مؤمناً كان أو كافراً ، صالحاً كان أو طالحاً - لا يمكن أن ينجح في هذا العالم ويكون في عداد الفائزين ، إلا إذا كانت فيه قوة الارادة والمضاء في الأمر والعزم والاقدام والصبر والثبات والاناة ورباطة الجأش وتحمل الشدائد والهمة والشجاعة والبسالة والنشاط والشدة والبأس والولوع بالغاية والاستعداد للتضحية بكل شيء في سبيل تحقيقها ، والحزم والحيطة وادراك العواقب والقدرة على العمل المنظم والشعور بالواجب والاحساس بالمسؤولية والقدرة على تقدير المواقف المختلفة ، والقدرة على صوغه وإفراغه في قوالب مناسبة حسب الظروف

المتبدلة ، والقدرة على تدبير الشؤون وفـق تلك الأحوال والظروف ، وكان ملاكاً لعواطفه ورغباته ونزعاته النفسية ، وكذلك كان قادراً على استمالة أهواء الناس والأخذ بمجامع قلوبهم وتحبيب نفسه اليهم واستخدامهم في ما يحتاج اليه.

ثم لا بد له من أن يكون متحلياً ولو بلمع من تلك الشمائل الكريمة التي هي ملاك الآدمية وقوام أمرها في نفس الأمر والتي تضمن للانسان الوقار والثقة في هذه الدنيـا كالإباء والسخاء والرأفـــة والمواساة وسعة القلب والنظر والصدق والامانة والنزاهة والوفاء بالعهد وكمال الرزانـــة والاعتدال والتهذيب والطهارة والنظافة وضبط النفس والذهن.

هذه هي الصفات التي إذا حازها واستوعبها معظم افراد أمة من الأمم أو جماعة من الجماعات ، فكأنها عندها ثروة الانسانية ورأس مالها . فان هذه الثروة هي التي تتكون على أثرها قوة جماعية قوية فعالة ، الا ان هذه الثروة لا يمكن أن ترتكز وتتجمع بنفسنا وتنقلب إلى قوة جماعية عظيمة محكمة فعالة في الأمر الواقع ، إلا إذا ساعدتها على أمرها جملة من الصفات الخلقية الأخرى ، وذلك مثل أن يكون جميع الافراد أو معظمهم متفقين على غاية لهم مشتركة بعينها وكانت أحب اليهم من أغراضهم الشخصية بل من

نفوسهم وأموالهم وأولادهم ، وكانوا متمتعين بالتحاب والمواساة في ما بينهم ، وكانوا متعاونين على الخير متساندين على البر ، وكانوا ، على الأقل ، ممن يضحون بأثرتهم وذاتيتهم إلى حد لا بد منه لسعي جماعي منظم ، ثم يميزون القائد الراشد من القائد المضل ، ولا يلقون اعباء قيادتهم وسيادتهم الا على كواهل رجال يصلحون لها ، وكان قوادهم وزعماءهم متحلين بصفات الاخلاص وحسن التدبير وما اليها من الصفات الأخرى المستلزمة للقيادة ، وكانت الامة أو الجماعة أنفسهم يعرفون طاعة قوادهم ويثقون بهم ويتطلعون إلى جعل جميع وسائلهم ومواهبهم الفكرية والجسمانية والمادية تحت تصرفهم ، وكان فيهم من الرأي العام الحي الفعال ما لا يسمح بأن ينشأ فيهم شيء يمس بكيانهم ويهدد فلاحهم الجماعي .

فاذا كانت امامك غاية صحيحة منزهة ، فانما تحتاج إلى سلاح من الحديد لا من الخشب الذي اكلته الأرضة ولا قبل له بتحمل شيء من الضرب الخفيف . وهذا ما أشار اليه نبينا الكريم ﷺ بقوله : (خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام)[1] اي أن الذي كان فيهم الجوهر الثمين في

(١) كما ورد في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة بطرق متعددة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا . (باب المناقب)

الجاهلية ، إنما هم الذين نفعوا الاسلام واثبتوا انهم أكفاء للاضطلاع بكل أمر من أموره . وغاية ما حدث فيهم من الفرق انه كانت مواهبهم وقواهم تستعمل في طرق الشر والمعصية ، فجاء الاسلام ووجهها إلى طريق الرشد والخير . والحاصل أن نفايات القوم وحثالاتهم ما كان ليرجى منهم النفع لا في الاسلام ولا في الجاهليـــة . ان الظفر العظيم والفتح المبين – الذي ناله النبي ﷺ في العرب والذي لم يمض عليه إلا مدة يسيرة ، حتى أحس جزء عظيم من المعمورة من نهر السند إلى بحر الاطلسي بنفوذه وآثاره البالغة – أو كان لكل ذلك سبب غير انه ﷺ ظفر في جزيرة العرب بأحسن ذخيرة من الكفاءة الانسانية والاستعداد البشري ممن كانوا يملكون قوة مسخرة من السيرة الفردية والطباع المستقيمة . أرايتك انه لو كان ظفر ﷺ من أصحابه برجال ساقطي الهمة متزعزعي الارادة ممن لا يوثق بهم ولا يعول عليهم فهل كان يحصل منهم على نتائج مثل تلك النتائج الباهرة التي حصل عليها ؟

الاخلاق الاسلامية :

ولنتناول الآن الشعبة الثانية للاخلاق ، وهي التي أعبر

عنها بالاخلاق الاسلامية ، وما هي بشيء مستقل عن الاخلاق الانسانية الاساسية بل هي متممة لها ومكملة اياها . فاول عمل يأتي به الاسلام انه يزود الاخلاق الانسانيـة بمركز صحيح وقطب مستقيم إذا اقترنت به حوّلهـا إلى الخير والرشد برمتها . وليست هذه الاخـــلاق في صورتهـا الاولى إلا قوة مجردة يمكن استخدامها في الخـــير والشر معاً ، وإنما مثلها كمثل السيف الصارم هو آلة للظلم والارهاق والجور إن كان في يد اللص السارق ، واداة للخير والحق ان كان في يد المجاهد في سبيل الله . فلا يحكم على هـذه الاخلاق بالخير والصلاح لمجرد وجودها في فرد معـين أو جماعة بعينها ، بل يتوقف خيرها وصلاحها على كونهـــا مستخدمة في السبيل الاقوم ، فالاسلام يعني بتوجيه هذه الاخلاق المحضة إلى طريق الخير والحق . ومن المقتضيات المستلزمة لدعوة الاسلام إلى التوحيد أن لا تكون الغاية الوحيدة والمقصد الجوهري من وراء جهود الانسان ومساعيه الا ابتغاء وجه الرب تعالى[١] وان يحدد أفق فكرته ونطاق

---

(١) كما أشير إلى هذا المعنى بـ (واليك نسعى ونحفد) في الدعـاء المأثور المعروف .

عمله بجدود عينها له ربه الجليل[1] . فمن النتائج اللازمة لهذا الاصلاح الاساسي ان جميع الاخلاق الاساسية التي قد ذكرتها لكم آنفاً تتجه إلى الطريق المستقيم ، وان القوى التي تتولد بوجود هذه الأخلاق لا تستعمل ولا تنفذ إلا في سبيل اعلاء كلمة الحق الناصع بالطرق المباحة ، بدلاً من أن تستعمل في سبيل النفس أو الأسرة أو الأمة أو الوطن بطرق جائزة وغير جائزة . وهذا هو الذي ينهض بهذه الاخلاق – على الوجه الايجابي – من مرتبة القوة المجردة ويحولها خيراً شاملاً ورحمة للعالمين .

والمهمة الثانية التي يأتي ويعني بها الاسلام في باب الاخلاق أن يؤصل الاخلاق الاساسية الانسانية ويوطد أركانها في جانب ، ويوسع في تطبيقها على مظاهر الحياة الانسانية إلى حد عظيم في جانب آخر . وخذ لذلك الصبر مثلاً . فمهما بلغ الرجل الغاية في الصبر واستولى على الامد في حلبته ، فلا بد له أن يقف تحمله وينفد ثباته عند حد معلوم إذا كان لأغراض عاجلة ليستمد قوته ويتغذى من الجذور الفكرية للشرك وعبودية المادية . أما الصبر الذي يستجلب قوته من جذور التوحيد

(١) وإلى هذا المعنى اشير بـ (إياك نعبد ولك نصلي ونسجد) في الدعاء نفسه .

والذي لا يبتغي من ورائه إلا وجـــه الله تعالى ، فهو كنز مكنون لا تصل اليه يد السارق ، وجيش عرمرم من الثبات والبسالة لا يقدر أن يقف في وجهه سائر الشدائد والأهوال الممكنة في هذه الدنيا. ثم إن الصبر لغير المسلمين من نوع محدود ضيق جداً ، فبينما تراه خائضاً غمار المعركة ثابتاً امام هجمات الرشاشات والقنابل ثبوت الجبال الراسيات ، إذا به تراه مستسلماً لشهوات النفس الجامحة لا يكاد يملك نفسه وعواطفـه امـــام هزة يسيرة مـن هزات الغريزة الثائرة . اما الاسلام ، فيطبق الصبر ويوسع في تطبيقه على سائر الحياة الانسانية ، ولا يجعله سداً منيعاً ومعقلاً حصيناً دون اخطار واهوال معدودة فقط ، بل دون كل ما يحـاول تنكيب الانسان عن الصراط المستقيم من المطامح والأخطار والوساوس والرغبـات . والحقيقـة ان الاسلام يطبع حياة المؤمن بطابع من الصبر والاناة التي من مبادئها الاساسية أن يظل قائماً على طراز صحيح مستقيم من الفكر والعمل طول حيـــاته مهما لقي في ذلك من الاخطار والاهوال والشدائد ، ولم يتراءَ له بارقة أمل من النتائج النافعة في هذه الحياة الدنيا ، وان لا يختار طريقاً معوجاً من الفكر والعمل بأية حال ، وإن لحت له جنة

وارفة من الأحلام العِذاب ، والاماني المعسولة والمنافع المأمولة . فهذا الابتعاد عن الشر والمواظبة على طريق الخير والرشد طول الحياة الدنيا احتساباً لنتائج الآخرة وعواقبها اليقينية ، هو الصبر الاسلامي . وكذلك يكون ذلك الصبر بطبيعة الحال في تلك الاشكال التي ترى في حياة الكفار على نطاق محدود . ولك أن تقيس عليه سائر الاخلاق الاساسية التي نشاهدها ضعيفة محدودة في حياة الكفار لما يعوزها من أساس فكري صحيح . فالاسلام يتناول هذه الاخلاق كلها ويسعفها بأساس صحيح محكم من عنده ويوسع دائرة نفوذها .

والمهمة الثالثة التي يقوم بها الاسلام انه ينظر إلى الاخلاق الاساسية العامة كانها الطبقة الاولى من البناء ، فيشيد عليها الطبقة الثانية من الاخلاق الفاضلة ، حتى ليرتقي بها الانسان إلى أعلى درجات الشرف والكمال وهو يطهر قلبه من أدران الاثرة والانانية والظلم والوقاحة والخلاعة والاستهتار ، ويلقي في روعه بذرة تقوى الله وخشيته تعالى ، والورع واتباع الحق ، ويذكي فيه قبس الشعور بالتبعات ، ويروضه على التخلق بضبط النفس ، ويجعله جواداً كريماً ودوداً

مواسياً ناصحاً أميناً مخلصاً عادلاً صادقاً لخلائق الله جميعاً في كل حال، ويربيه وينشئه على سيرة طاهرة سامية لا يرجى منها إلا الخير ولا يخشى منها الشر أبداً، ثم ان الاسلام لا يقتصر على أن يجعل الانسان صالحاً راشداً في ذات نفسه، بل يجعله فوق ذلك « مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر » كما ورد في الحديث النبوي[1] . أي انه يفوض اليه وينيط به – على الوجه الايجابي – مهمة تعميم الخير واستئصال شأفة الشر في أرض الله . وفي طبيعة تلك الاخلاق والسيرة من الحسن والجذب وقوة التسخير البالغة ما إن تحلت به جماعة منظمة وسعت سعيها في القيام بما القى الاسلام على كاهلها من مهمة الدعوة اليه، فلا قبل بمواجهتها ومقاومتها لقوة من قوى الدنيا كلها .

اجماع القول في سنة الله في باب الامامة :

هذا وأريد الآن أن أبين لكم بكلمات موجزة تلك السنة التي سنها الله تعالى في باب الامامة والتي ما زالت نافذة

---

(١) عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : طوبى لعبد جعله الله تعالى مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر . وويل لعبد جعله الله مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير . (مشكاة المصابيح ، كتاب الآداب ، باب الرقاق).

من الازل وستبقى جارية ما دام النوع البشري حياً قائماً على فطرته في هذه المعمورة ، فهاكم اياها :

١ – إذا لم تكن في الارض طائفة منظمة متصفة بكل من الاخلاق الاساسية والاخلاق الاسلامية وهي تستخدم – مع ذلك – الوسائل والاسباب المادية، فلا بد أن يسلم زمام القيادة والسيادة في العالم إلى طائفة تكون أكثر جمعاً واحتيازاً للاخلاق الاساسية الانسانية والاسباب المادية من غيرها وذلك بأن قد جرت مشيئة الله أن يبقى نظام هذا العالم جارياً مطرداً على كل حال ، فمن ثم يفوض أمر ادارته وتسيير دفة شؤونه إلى أعظم الطوائف المعاصرة قدرة وأكثرها كفاءة .

أما إن كانت في الارض فئة منظمة تمتاز من بين سائر الفئات الموجودة وتفضلها جميعاً في الاخلاق الاسلامية والاخلاق الانسانية العامة معاً ، ثم لا تقصر في الوقت نفسه في استخدام الاسباب المادية حق استخدامها ، فمن المستحيل عندئذ أن تتسلم أزمة قيادة الارض وتتمتع بسيادتها فئة اخرى بازائها ، فان ذلك مما يناقض فطرة الكون ويناقض سنة الله التي سنها في الشؤون البشرية ، ويناقض مواعيده

التي وعد بها المؤمنين الصالحين من عباده في غير موضع من كتابه العزيز . والله تعالى لا يحب الفساد في أرضه ، وأي فساد اشنع وابشع من ان ينقاد زمام أمور الارض لفئة تعيث فيها وتملؤها ظلماً وجوراً ، مع ان فيها فئة صالحة قادرة على تسيير دفة حكمها طبقاً لمشيئة الرب ومرضاته تعالى . ومما ينبغي أن لا يغيب عن البال أن نظام الاستخلاف في الارض لا يمكن ان يتغير ويتبدل بمجرد وجود فرد صالح أو أفراد صالحين مشتتين في الدنيا ولو كانوا في ذات أنفسهم من أولياء الله تعالى بلى ومن انبيائه ورسله . ان الله تعالى لم يقطع ما قطع من المواعيد لافراد متفرقين مشتتين ، وانما قطعها لجماعة منسقة متمتعة بحسن الادارة والنظام قد اثبتت نفسها – فعلاً – أمة وسطاً ، أو خير أمة في الارض .

وكذلك ينبغي أن يكون منكم على ذكر بهذا الصدد، ان نظام الامامة لن يحدث فيه اي تغير ولا انقلاب بمجرد وجود فئة مثل هذه في الارض ، بحيث انها إذا تألفت وأخذت في الوجود مكانها ، تنزلت من السماء الملائكة ونحّت الفاسقين الفاجرين عن كرسي السيطرة والسلطان وبوّأوه هؤلاء الصالحين المؤمنين . بل مما لا مندوحة عنه لهذه الفئة المؤلفة أن تستمر

في المكافحة والمناضلة لقوى الكفر والفسق على كل خطوة من كل حلبة من حلبات الحياة الدنيا وتثبت ما في نفسها من حب الحق وكفاءة للاضطلاع باعباء إمامة الارض ببذل التضحيات والمساعي في سبيل إقامة الحق . وذلك شرط لم يستثن منه حتى الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، فانى لأحد اليوم أن يتمنى على ربه أن يستثنيه منه .

الفرق بين قوة الاخلاق الأساسية والأخلاق الاسلامية :

والذي قد أرشدتني اليه دراستي للقرآن الكريم والتاريخ والامعان فيهما أن لله سنة مطردة في باب التوازن بين القوتين المادية والخلقية ، وهي أنه إذا كانت القوة الخلقية بتمامها مرتكزة في الاخلاق الانسانية الاساسية ، فهناك للوسائل المادية أهمية عظيمة ، حتى انه من الممكن إذن أن يستتب الامر في الارض لفئة لها النصيب الاوفر من الوسائل المادية ولو لم يكن عندها إلا قليل من القوة الخلقية ، على حين أن الفئات الاخرى التي قد تفوقها في القوة الخلقية تكون مغلوبة على امرها لقلة الوسائل المادية فحسب . أما إذا كانت القوة الخلقية مدججة بأسلحة من الاخلاق الاساسية والاسلامية معاً ، فهناك لا بد أن تتغلب الاخلاق

– على قلة الوسائل المادية عندها – على سائر القوى التي لم تقم ولم تبرز إلى الميدان إلا مستندة إلى الأخلاق الاساسية والاسباب المادية فقط . ولك ان تدرك هذه الحقيقة عن هذا الفرق النسبي بين القوتين بأنه إذا كانت الأخلاق الاساسية تحتاج إلى مائة درجة من الوسائل المادية ، فالأخلاق الاسلامية والاساسية متحدة لا تحتاج في هذا الموقف نفسه إلا إلى ٢٥ درجة من تلك الوسائل المادية ، والذي يبقى من الخمس والسبعين درجة من قوتها المادية ، تستكملها الاخلاق الاسلامية بدافعها النفسي الكامن في طبيعتها . بل الذي تعلمنا تجارب العهد النبوي انه إذا كانت الأخلاق الاسلامية على ما كانت عليه اخلاق النبي ﷺ واصحابه الكرام – رضوان الله عليهم اجمعين – فان خمس درجات من الوسائل المادية تقوم مقام مائة درجة منها . وإلى هذه الحقيقة قد اشار القرآن الكريم بقوله : « إنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُون صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائتَين »[1] .

والذي ذكرت لك الآن ، لا اقوله عن حسن عقيدة في شخص النبي ﷺ وأصحابه فحسب ، ولا يذهبن بك

(١) « الانفال » آية ٦٥ .

الظن إلى اني اقص عليك شيئاً من قبيل المعجزات والكرامات، لا ، لا ، بل هي حقيقة فطرية ثابتة تحدث في هذا العالم - عالم الاسباب والعلل - وفق قانون العلة والمعلول ، ويمكن تحققها كلما وجدت علتها وقبل أن أتقدم في البحث يجمل لي ان اشرح لكم على وجه الايجاز كيف تقوم الاخلاق الاسلامية - وهي متضمنة للأخلاق الاساسية بطبيعة الحال- مقام ٧٥ بل ٩٥ درجة من القوة المادية .

لكم ان تدركوا هذه الحقيقة بامعان النظر في الصورة العالمية الحاضرة اليوم ، فان الفساد العظيم الذي كانت قد اشتعلت وتأججت نيرانه قبل ست سنوات ، قد انتهى اخيراً بانهزام ألمانيا ، وتكاد رحى الحرب تدور على اليابان بالهزيمة ايضاً (١) . فالذي لا مجال فيه للريب ان الفريقين متساويان في الاخلاق الاساسية تقريباً ، بل الذي يظهر من بعض الوجوه ان المانيا واليابان أتتا بما يدل على تفوقهما في القوة الخلقية الاساسية بازاء الحلفاء . وكذلك إذا وازنا بين الفريقين في العلوم الطبيعية وطرق استخدامها ،

(١) كتبت هذه الرسالة في أعقاب الحرب العالمية الثانية قبيل استسلام اليابان .

وجدنا كلا منهما يناهض الآخر ويماثله ، بل الذي لا يخفى على أحد ان المانيا - إن لم نقل اليابان أيضاً - كان لها قصب السبق على سائر الدول العالمية في هذا الباب . غير ان هناك شيئاً واحداً فاق فيه أحد الفريقين على الآخر فوقاً عظيماً ، ألا وهو ملاءمة الوسائل المادية وموافقتها . فلم ينتصر المنتصر إلا لما كان لديه من الرجال والعدة والعتاد والوسائل المادية الأخرى أضعاف ما كان عند قرينه . وأضف إلى ذلك موقعه الجغرافي المنيع الذي لم يتيسر لقرينه ، وكذلك ما أنعمت به عليه الأسباب التاريخية من ظروف وأحوال لم تكن لقرينه . فلا يكاد يكون من المتوقع اليوم أن تقوم أمة قليلة العدد والعتاد في وجه أمة قوية عندها وفرة عظيمة من الوسائل والأسباب المادية ، ولو كانت أسبق منها في التحلي بالأخلاق الأساسية وأعرف منها باستخدام العلوم الطبيعية ، وذلك ان كل أمة تجعل نهضتها على قواعد من الأخلاق الأساسية والعلوم الطبيعية لا تخلو حالها من أمرين : إما أن تكون غارقة في قوميتها طامحة ببصرها إلى تسخير العالم واحتجانه لمصلحتها ، وإما أن تكون حاملة بيدها لواء بعض مبادىء عالمية داعية اليها سائر أمم الأرض .

ففي الصورة الأولى لا يمكن أن تنال مبتغاها وتبلغ مرادها إلا إذا كانت أوفر الأمم وأكثرها حظاً من الوسائل والقوى المادية . وذلك ان سائر الامم التي تكون عرضة لمطامحها وجشعها الاستعماري ، لا بد أن تقوم في وجهها وتستميت في مقاومتها وتتقد بنار الغضب والنفور في مطاردتها . أما الصورة الثانية ، فلا شك انه من الممكن فيها أن تسخر فكرتها ونظريتها عقول الأمم وأذهانها فتستسلم لدعوتها الانقلابية ، ولا تحتاج لنيل مبتغاها إلا إلى قليل من القوة المادية . ولكن الذي ينبغي ان لا يغيب عن الالباب ان القلوب لا تذعن لها بمجرد المبادىء العذبة والقواعد المعسولة بل لا بد لمن يرغب في تسخيرها أن يثبت أنه غذي بلبان النصح والصدق والامانة والطهارة ورحابة الصدر والسخاء والمواساة والشرف والعدل — ان يثبت انه قد ترعرع في حضن هذه الاخلاق الفاضلة الحقيقية التي تتحقق ناصعة غير مشوبة بأدران الأغراض الدنيئة في الحرب والسلم والانتصار والانهزام والصداقة والعداوة وما اليها من الاحوال الطارئة والمحن التي تعتور الحياة الانسانية ، هذه الاخلاق الفاضلة التي هي أسمى وأسنى من الاخلاق الاساسية العامة . ومن ثم تشاهدون

اليوم أن كل أمة تقوم نهضتها على دعائم الاخلاق الاساسية والقوى المادية المجردة ، لا بد أن تؤول جهودها ومساعيها كلها إلى الاغراض والأثرة الفردية أو الطائفية أو القومية الخالصة ، سواء أكانت قد جهرت بخطتها القومية أو أخفتها وراء ستار دعوة عالمية تحمل لواءها وتدعي الذود عن مبادئها ، كما تشاهد اليوم بأم عينك في السياسة الخارجية للدول الاميركية والانكليزية والروسية ، فالظاهر في مثل هذا الكفاح والصراع أن تقوم كل أمة في وجه أمة أخرى وتحول بينها وبين تحقيق آمالها ومطامحها وتبذل بذل المستميت كل ما أوتيت من القوى المعنوية والمادية في نضالها وكفاحها ، وتأبى أن تسمح لها ان تشق الطريق لرقيها من بين أرضها ، اللهم إلا إذا غلبت عليها بوسائلها المادية الموفورة وطحنتها طحناً .

هذا ، وتمثلوا في مثل هذه الحال أن هناك فئة ، ولو كان منشؤها في أول الأمر في أمة من الامم ، إلا انها قد ظهرت بمظهر الجماعة ، والحزب ، لا بمظهر الطائفة في هذه الدنيا ، وهي منزهة من الاغراض الشخصية الطبقية أو القومية وهي لا تبتغي من وراء جميع ما تبذل من المساعي

والجهود إلا ان تقيم في هذه الدنيا نظام الحيـاة الانسانية على أساس مجموعة من الاصول والمبادىء التي تؤمن بها ، ولا ترى سعادة النوع البشري وهناءتـه مضمونة إلا في اتباعها والسير عليها ، وكذلك لا يشوب المجتمع الذي تؤلفه هـذه الفئة اي شائبة من شوائب الفروق والامتيـازات القومية أو الاقليمية أو الطبقية أو النسلية ، ومن الممكن أن ينضم اليه وينخرط في سلكه جميع أبناء البشر بحقوق متساوية ومنزلة متماثلة ، وأن ينال فيه منصب القيـادة والإمامة أي فرد أو مجموعة من الافراد ، فـاق سائر الافراد في اتباع هذه المبادىء والاصول والتحلي بمقتضياتها، بقطع النظر عن قوميته النسلية أو الاقليمية . بل قد يمكن في هذا المجتمع ان المغلوب على أمره إذا آمن بهذه المبادىء واثبت نفسه أصلح وأكفأ للاضطلاع بالامور من الذي فتح بلاده وانتصر عليه ، يأتي هذا الفاتح ويسلم اليه جميع ثمرات مساعيه ويرضى به إمامـاً لنفسه يقتدي به ويأتمر بأوامره . فاذا قامت هذه الفئة ودعت الناس بدعوتها ، قـام في وجهها الذين لا يرضيهم انتشار مبادئها في الارض وألقوا في سبيل سيرها ورقيها العراقيل والعقبات . فوقتئذ يبتدىء

الصراع والمنازعة بين القوتين . فكلما تزداد هذه المناضلة شدة واشتباكاً تزداد هذه الفئة صبراً ومراساً وتأتي بازاء عدوها بأشرف الاخلاق وأفضلها وتثبت بسلوكها وخطتها العملية انها لا تبتغي من وراء جهودها إلا سعادة جميع خلق الله . وهي لا تحارب ذوات أعدائها ولا قوميتهم وإنما تحارب ضلالتهم ومناهجهم الزائغة التي لو تركوها لأصبحوا اخواناً لهم متحابين فيما بينهم . وهي لا تطمع في أموالهم وثروتهم ، ولا تريد أن تضع يدها على تجارتهم وصناعتهم، وانما تحرص كل الحرص على هدايتهم وتطمع كل الطمع في سعادتهم الخلقية والروحانية التي إذا نالوها وظفروا بها ، فهم أحق بثروتهم وبكل ما لديهم . وهي لا تستخدم الكذب والخديعة والمكر السيء ، ولا في أحرج المواقع وأشدها ، وهي تدفع السيئة بالحسنة ولا ترد على المؤامرات الدنيئة إلا بالحيل والتدابير الشريفة ، ولا تكاد تحملها سورة الانتقام والثأر على الجور والاعتداء ، وهي لا تقعد عن اتباع ما قامت لدعوة الناس اليه من المبادىء حتى في أشد مواقف الحرب وأكثرها خطورة ، ولا تنفك قائمة في كل الاحوال على الصدق والوفاء بالعهد وحسن المعاملة والاستمساك

بالعدل ، وتثبت نفسها مستوفية لشروط الامانة والنزاهة العليا التي كانت عرضتها على الدنيا في أول أمرها مقياساً لها . وكلما التقى في ميدان الحرب الفريقان واصطفا وجهاً لوجه : الزناة والمدمنون للخمر والمقامرون والجفاة الغلاظ من جنود الاعداء في جانب ، والاطهار والاتقياء والعابدون الصالحون والجاهدون الرحماء من رجال هذه الفئة في جانب ، تظهر مروءة كل رجل من هؤلاء الاطهار وانسانيتهم العالية ويبرز للعيـان سموها وتفوقها على توحشهم وهمجيتهم ، وحينما يتسنى لاولئك أن يأتوا إلى هؤلاء جرحى أو اسرى بعد الحرب ، تأخذ أرواحهم الخبيثة المدنسة بادناس الكفر والضلال في التطهر من أدرانها شيئاً فشيئاً لما يرون في هذا المجتمع من الخير والشرف والعلو والطهارة في الاخلاق . واما إذا اسر افراد هذه الفئة ووقعوا في أيدي عدوهم ، يزداد صقلاً وانجلاء في هذا المجتمع المظلم ما في أنفسهم من جوهر الانسانية . وإذا كتب لهم الاستيلاء على قطر من اقطار الارض ، يلقى منهم أهـله العفو مكان الانتقام ، والمرحمة والنصفة مكان الظلم والعدوان ، والمواساة مكان المجافاة ، والحلم والتواضع مكان الغطرسة والكبرياء ، والدعاء مكان السباب ، والدعوة إلى المبادىء الحق مكان الدعايات

الكاذبة الملفقة ، ولا يكادون يقضون عجبهم حينما يشاهدون ان الفاتحين الأمناء لا يطلبون منهم النساء ، ولا يبحثون عن أموالهم المخبوءة ، ولا يتجسسون لاكتشاف اسرار صناعتهم ، ولا يتفكرون في القضاء على قوتهم الاقتصادية ، ولا يستخفون بكرامتهم القومية ولا يمسونها بسوء ، بل الذي يهمهم قبل كل شيء ان لا تنتهك حرمة لأحد من أهالي البلاد التي قد تولوا أمرها ، ولا يصاب أحد منهم في ماله ، ولا يحرم حقاً من حقوقه المشروعة ، ولا تنشأ فيهم رذيلة من الرذائل الخلقية ولا تبقى فيهم المظالمـــة الاجتماعية في أي شكل من الأشكال ، وبالعكس من ذلك فكلمـا احتجز الفريق المخالف بقعة من بقاع الأرض ، ارتفعت شكوى سكانها من مظالمه واعتداءاته ، ونادت بالويل والثبور . ولك أن تتمثل بنفسك مبلغ ما يحدث في مثل هذه الحرب من الفرق العظيم بالنسبة إلى الحروب والمعارك القومية . ولا بد أن نهزم الانسانية السامية في مثل هذه الحرب على قلة وسائلهـا وأسبابها المادية همجية أعدائها المحصنة بالحديـد والمدججة بآلات الدمار والهلاك ، وان تغلب أسلحة الأخلاق الفاضلة المدافع والقنابل ، وان ينقلب الأعداء اصدقاء في عين الوقت الذي يكون وطيس الحرب فيه حامياً مضطرماً وان تنهزم

القلوب وتنفتح قبل الاجساد ، وان تدخل الاقطار تلو الاقطار في حوزة ملكها بدون أدنى مشاكسة أو محاربة ، وان هذه الفئة الصالحة عندما تقوم بأمرها وتشمر عن ساق الجد في تحقيق مهمتها بعدد قليل من رجالها ، ونزر يسير من عتادها ، فلن تزال تحرز وتستكمل شيئاً فشيئاً كل ما تحتاج اليه من القواد والجنود والحذاق والمهرة في فنون الحرب ، وكذلك الاسلحة والذخائر وأدوات الحرب من معسكرات الأعداء وثكناتهم أنفسهم .

واني لا أقول كل ذلك بناء على مجرد الحدس والتخمين. بل إنكم إذا أجلتم النظر في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين ، تجلى لكم بدون أدنى شك ولا ارتياب ان هذا كله قد وقع وشهد عليه التاريخ من قبل ويمكن أن يتحقق اليوم بشرط أن ينبري لهذه التجربة رجال فيهم الجرأة والحمية والحماسة الكافية .

لعلكم قد أدركتم مما تقدم من البيان ان منشأ القوة ومنبعها الاصلي هو القوة الخلقية . وإن كان في الأرض اليوم فئة منظمة متصفة بالأخلاق الاسلامية والاخلاق الاساسية كلتيهما ، فمن المستحيل عقلاً والمتعذر طبعاً أن تتمتع بسيادة الارض وتتمسك بأزمة أمورها فئة غير هذه الفئة . وكذلك

أراك قد فطنت لما هو السبب الجوهري لتأخر المسلمين وانحطاطهم في العالم اليوم . ومن الظاهر البين انه لا يمكن ان تبقى متمتعة بسيادة الأرض وزعامتها وقيادتها أمة لا تستخدم الوسائل المادية ولا الوسائل الاساسية ، ولا تتزين بالاخلاق الاساسية ، ولا توجد فيها بصفة جماعية الاخلاق الاسلامية . ومن مقتضى السنة الإلهية التي لا تتبدل ولا تتغير ان تؤثر فيهم أمم كافرة قد اثبتت ولا تزال تثبت أنفسها أكثر كفاءة منها في الاخلاق الاساسية واستخدام الوسائل المادية لادارة شؤون الأرض وتسيير دفتها وإن كانت مجردة عن الاخلاق الاسلامية . فان كان في نفوس المسلمين شيء من الملل والضجر من هذه الحال فليلوموا أنفسهم لا سنة الله ، وليكن من نتيجة ذلك أن يفكروا ويجتهدوا في تدارك ذلك النقص الذي قد أخرهم ونحاهم عن قيادة الارض وجعلهم مطية ذلولاً لكل قاهر مستبد .

اربع مراتب للاخلاق الاسلامية

وهذا الذي نعبر عنه بالاخلاق الاسلاميـــة ، يشتمل بموجب القرآن والسنة على أربع مراتب هي : الايمان والاسلام والتقوى والاحسان . وهي كلها مرتبة ترتيباً فطرياً بحيث أن كل تالية منها تتولد من سابقتها ولا تؤسس إلا عليها . فما دامت الطبقة الاولى منها غير محكمة متقنة ، لا يكاد يخطر بالبال أن تبنى عليها الطبقة الثانية . فالايمان بمنزلة الأساس في هذا البناء ، وهو الذي تقوم عليه طبقة الاسلام ، ثم تشيد على طبقة الاسلام طبقة التقوى فطبقة الاسلام ، والذي يبدو من ذلك أنه ما دام الايمان – وهو اساس الاسلام والتقوى والاحساس ، كما عرفت – منعدمـــاً ، لا يمكن وجود الاسلام أو التقوى أو الاحسان بوجه من الوجوه . وكذلك ما دام الايمان ضعيفاً متزعزعاً ، يستحيل أن يشيد عليه أي بناء من الأبنية ، وإن شيد فلا يخلو من أن يكون ضعيفاً متزعزع الاركان متداعي القواعـد والأسس . وكذلك إذا كان الايمان ضيقاً محدوداً فلا بد للاسلام والتقوى والاحسان جميعاً ان تحد بحدوده ولا تعدوه أبداً . فما دام الايمان والاحسان غير صحيح محكم واسع الاكناف

والجوانب ، لا يكاد يخطر ببال رجل له شيء من الالمام بالدين ان يشيد عليه بناء الاسلام أو التقوى ، أو الاحسان ، وكذلك مما لا بد منه أن يهتم باصلاح الاسلام واتقانه وتوسيعه قبل التقوى ، وبإصلاح التقوى وإتقانه وتوسيعه قبل الإحسان ولكن كثيراً ما نشاهد الناس اليوم قد نسوا هذا الترتيب الفطري ولا يأبهون له فيشرعون في تشييد صرح التقوى والاحسان قبل ان يوطدوا لها اسس الايمان والاسلام ، وأشد من ذلك مبعثاً للأسى والأسف ان الناس قد رسخ في أذهانهم تصور محدود للايمان والاسلام ، فيزعمون انهم يستكملون تقواهم ويبلغون أعلى درجاته إذا افرغوا هندامهم وزيهم وجلوسهم وقيامهم وأكلهم وشربهم وما اليها من الاعمال الظاهرة الاخرى في قالب معين ، ثم يفوزون بأعلى درجات الاحسان إذا اختاروا لانفسهم قدراً معيناً من النوافل والاذكار والاوراد وغيرها من الاعمال المستحبة شرعاً . ولكن كثيراً ما تشاهدون في حياة هؤلاء المتقين المحسنين بزعمهم امارات تشهد شهادة ناطقة بأنهم لم يؤسسوا بعد صرح الايمان على أساس متين محكم . فما دامت هذه الاخطاء باقية ، فلا رجاء في نجاحنا في استكمال أدوات الاخلاق الاسلامية . ابداً فإذن لا بد

لنا من استكمال تصور المراتب الاربع : (الايمان والاسلام والتقوى والاحسان) وإدراك ما فيها من ترتيب طبيعي فطري .

الايمان :

فلنبدأ بالايمان الذي هو الاساس للحياة الاسلامية . ولا يخفى على أحد ان الايمان عبارة عن الاقرار بالتوحيد والرسالة . فاذا ما أقر بهما المرء استوفى الشرط القانوني لدخول المرء في الاسلام وأصبح من عداد المؤمنين . فإذن يكون من حقه أن يعامل معاملة المسلمين . ولكن هل يكفيه هذا الاقرار المجرد – الذي لا يعدو استكمال اداة قانونية – في أن يشيد على أساسه صرح الحياة الاسلامية بطبقاته الثلاث الباقية ؟ ومن دواعي الاسف وبواعث الاسى الشديد ان الناس لا يفهمون الامر إلا كذلك ، ولاجل ذلك كلما رأوا هذا الاقرار المجرد موجوداً شرعوا في تشييد صرح الاسلام العملي ، وكذلك التقوى والاحسان الذي لا ينهض ولا يطول على هذا الاساس الواهي الا ليسقط وينهار . أما الحياة الاسلامية الكاملة فلا بد لابرازها وتشييد صرحها ان يكون الايمان شاملاً محيطاً بجميع جوانبه ، راسخاً بعيد

الغور في تأصل جذوره . فأي شعبة تفوت من شعبه التفصيلية الواسعة تبقى تلك الشعبة نفسها في الحياة الاسلامية ناقصة البناء ، وحينما يبقى الضعف في رسوخ الايمان وبعد غوره ، يبقى بناء الحياة الاسلامية في الموضع نفسه عرضة للضعف والوهن والانهيار .

وخذوا لذلك الايمان بالله مثلاً ، وهو رأس الدين واللبنة الأولى من أساسه فسوف تجدون انه كلما جاوز الاقرار بالله صورته العادية وتناولته التفاصيل ، ظهر بمظاهر مختلفة لا تحصى ، فلا يبدو عند طائفة من الناس الاقرار بأن الله تعالى له وجود وهو خالق هذا الكون ولا شريك له في ذاته ، وعند طائفة أخرى ينكمش نطاقه وينحصر في أن الله هو إلهنا فعلينا بعبادته . وعند طائفة أخرى تحد صفات الله تعالى وحقوقه وتصرفاته – على وسعها ورحبتها – بأنه عالم الغيب والشهادة ، السميع البصير ، مجيب الدعوات وقاضي الحاجات ولا شريك له في استحقاقه لجميع الصور الجزئية للعبودية ، وأن كتابه هو المرجع الاخير في جميع الشؤون الدينية على حساب مصطلحهم المحدود . ومما لا مجال فيه للريب أن هذه التصورات المختلفة لا يمكن أن يتكون بها منهج ونظام للحياة واحد بعينه ، بل كلما كان التصور

ضيقاً محدوداً كانت الصبغة الاسلامية في الحياة العمليـة والاخلاق ايضاً محدودة ، حتى أنكم ترون ان الذين قد بلغ عندهم الايمان بالله الى أقصى غاياته حسب التصورات الدينية الشائعة ، لا يعدو في نظرهم نطاق الحياة الاسلامية أن يجمعوا بين طاعة الله تعالى وبين الاذعـــان والتذلل للطواغيت ، أو أن يضموا نظام الكفر إلى نظام الاسلام حتى يحصل منها مركب جديد يجدون فيه كل ما تشتهيه أنفسهم .

وكذلك يختلف مقياس رسوخ الايمان بالله وبعد غوره باختلاف الناس . فمنهم من لا يرضى ولو ببذل شيء حقير مما يعز عليه في سبيل الله مع اقراره وايمانه به . ومنهم من يكون الله تعالى أحب اليه من بعض ما عنده من الاشياء ، كما تكون بعض الاشياء الأخرى أحب اليه من الله . ومنهم من يشري في سبيل الله حتى نفسه وماله ، ولكن يعز عليه التضحية بأفكاره وآرائه الخاصة أو سمعته التي قد نالها بين الناس . فهذه هي المقادير والمقاييس المحكمة التي يتعين بالنسبة اليها استقامة الحياة الاسلامية وتزلزل أمرها . وهكذا يخون الانسان اخلاقه الاسلامية في نفس الموضع الذي يكون فيه بنيان الايمان ضعيفاً واهناً .

فالحق انه لا يمكن أن ينهض صرح الحياة الاسلامية الكاملة الخالصة إلا على دعائم ذلك الاقرار بالتوحيد الذي يحيط بجميع نواحي الحياة الانسانية ، الفردية والجماعية ، والذي يحسب الانسان بموجبه أنه هو وكل ما بيده من شيء ملك لله ويرى أن الله هو المالك الشرعي الحقيقي له وللعالم كله ، المعبود المطاع وله الأمر والنهي وأن لا ينبوع للهداية إلا هو ، وتطمئن نفسه بكل شعور إلى ان الانحراف عن طاعة الله أو الاستغناء عن هدايته أو اشراك غيره به في ذاته وصفاته وحقوقه وتصرفاته ان هو إلا إمعان في الضلالة من أي ناحية جاء أو في أي لون كان.

ثم ان هذا البناء - بناء الايمان بالله - لا يمكن توطيد دعائمه إلا إذا رأى المرء في باطن أمره رأياً جازماً ، وقطع على نفسه بشعور كامل وإرادة قوية أنه هو وكل ما بيده ملك لله وراجع إلى مرضاته ، وقضى على ما في نفسه من مقياس للرضا والسخط وجعله مذعناً لرضا الرب تعالى وسخطه ، ونفى عن نفسه الاثرة والكبرياء ، وصاغ نظرياته وأفكاره وآرائه وميوله ونزعاته ومناهج تفكيره في قالب ذلك العلم الذي قد أنزله الله تعالى في كتابه العزيز وخلع عن عنقه ربقة جميع أنواع الولاء الذي لا يذعن لطاعة الله ، بل يمكن أن يقف في وجهها ، ومكن محبة الله تعالى ومودته من

سويداء قلبه ، ونفى عن أعماق فؤاده كل صنم يطالبه باجلاله وإكباره أكثر من الله تعالى ، وأدغم حبه وبغضه وصداقته وعداوته ورغبته ونفوره وصلحه وحربه . الخ في مرضاته تعالى حيث لا ترضى نفسه إلا بما يرضى به الله تعالى ، ولا تكره إلا ما يكرهه الله تعالى . فهذه هي مرتبة الايمان بالله الحقيقية وغايته المرموقة ، ومما لا خفاء فيه انه ما دام « الايمان » ناقصاً محدوداً في سعته وشموله ونضجه واستحكامه من هذه الوجوه ، فانّى يمكن وجود التقوى والاحسان ؟ وهل تسد هذا الخلل وتتداركه المبالغة في اعفاء اللحى أو هيئة الأزياء أو عملية السبحات أو قيام الليالي ؟

ولكم أن تقيسوا على ذلك الايمـان بالنبوة والكتاب واليوم الآخر ... الخ . فانه لا يكمل الايمان بالنبوة إلا إذا آمن المرء بالرسول قائداً له مرشداً يهتدي بهديه ويتأسى بأسوته في كل شأن من شؤون الحياة ، ورفض سائر الطاعات والارشادات والهدايات التي تخالف هديه أو تستغني عنه . وكذلك يبقى الايمان بالكتاب ناقصاً ما دامت في القلب شائبة من شوائب الطمأنينة بهيمنة أصول ومبادىء للحياة غير التي جاء بها كتاب الله تعالى ، أو كان القلب والروح ينقصها القلق على عدم اتباع الدنيا لما انزل الله واتخاذها

اياه نظاماً لحياتها . وكذلك لا يكمل الايمان بالآخرة ما دامت نفس المرء لا ترضى بايثار الآخرة على الدنيا ورفض القيم الدنيوية بازاء القيم الأخروية، لا ولا يقلقه الشعور بالمسؤولية الاخروية عند كل خطوة يخطوها في الحياة الدنيا . فحينما كانت هذه الأسس والدعائم منعدمة فأنّى للحياة الاسلامية الشاملة أن يشيد بناؤها هنالك ؟ فلما حسب الناس انه من الممكن ان يشيد صرح الأخلاق الاسلاميــة بدون توسعة هذه الدعائم واكمالها واتقانها وارساخها ، آل بهم الامر إلى انك تجد اليوم باب التقوى والاحسان ومراتبها العاليــة مفتوحاً على مصراعيه حتى في وجوه القضاة الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ، والمحامين الذين يتخاصمون على أسس القوانين غير الشرعية ، والعمال الذين يدبرون شؤون الحياة الانسانية تحت نظام الكفر والالحـــاد ، والزعماء والقواد الذين يتسابقون ويتنافرون في ما بينهم ليشكلوا الحياة البشرية ويؤسسوها على أصول المدنية والسياسة الكافرة . فهؤلاء القوم كلهم يعدون من المتقين المحسنين اذا اهتموا بافراغ ظواهر حياتهم وملامحهم في قالب معين ، وعودوا أنفسهم قدراً معلوماً من النوافل والاذكار والأوراد .

الاسلام :

فدعائم الايمان وأسسه التي ذكرتها لك آنفاً ، إذا تأصلت وتكملت وأخذت في الأرض مكانها اللائق بها ، ينهض عليها بناء الاسلام الذي هو ثاني مدارج الأخلاق الاسلامية ، كما عرفت مما تقدم . فما الاسلام إلا عبارة عن ظهور الايمان في صورة العمل . فعلاقة الايمان بالاسلام كعلاقة البذر بالشجرة . فلا يظهر بالشجرة إلا كل ما يكون في البذر ، حتى انك إذا اختبرت الشجرة عرفت ما كان وما لم يكن في بذرها . فكما انه لا يكاد يمر بخلدك أن تنبت الشجرة وتبسق اغصانها من غير أن يبذر لها البذر في الأرض . أو تأبى الشجرة أن تنبت وتؤتي ثمارها وإن بذر لها البذر في أرض طيبة غير مجدبة ؟ فهذا ما بين الايمان والاسلام بعينه . فحيثما كان الايمان ، كان لزاماً أن يظهر في حياة الانسان العملية وأخلاقه ومعاملاته للناس وقطعه أو وصله للأرحام واتجاه سعيه وكفاحه وميل طبعه وذوقه ومصرف أوقاته وقواه وكفاءاته إلى غير ذلك من كل جزء من سائر مظاهر حياته . وإذا وجدت ناحية من هذه النواحي يظهر فيها شيء غير الاسلام ، فاعرف ان الايمان لا يوجد في تلك الناحية ؛ وإن وجد ، فلا قوة فيه ولا

حياة . وإذا كانت الحياة العملية تجري بقضها وقضيضها في مجرى غير إسلامي ، فاعلم أن القلب خلو من الايمان أو قد بلغت الارض في جدبهـا وقحلها الى حد بعيد حتى لا يكاد بذر الايمان يؤتي فيها اثماره . فالذي أعتقده وأجزم به، بعد ما قدر لي الله تعالى من مطالعة الكتاب والسنة ودراستهما ما قدر ، انه من المستحيل وجود الايمان في القلب وعدم ظهوره بمظهر الاسلام في الاعمال .

وأرجوكم في هذا المقام ان تجردوا أذهانـكم من تلك المباحثات التي قتلها بحثاً الفقهاء والمتكلمون في باب الايمان والعمل وما بينهما من العلاقة ، ولكم أن تفهموا هذه القضية وتحيطوا بها علماً من كتاب الله رأساً . فالذي يظهر من القرآن الكريم واضحاً جلياً أن الايمان الاعتقادي والاسلام العملي متلازمان في ما بينهما ، وقد قرن الله تعالى بينهما في غير موضع من كتابه العزيز ، وأنه ما وعد بما وعد من حسن الجزاء والثواب إلا عباده الذين هم مؤمنون اعتقاداً ومسلمون عملاً . ثم الذي يتراءى لك من هذه النظرة في القرآن أن الله تعالى كلما آخذ المنافقين بجرائرهم يقيم الحجة على قلة ايمانهم بأعمالهم السيئة ، ويجعل الاسلام العملي هو الدليل على الايمان الحقيقي . غير ان الذي لا ريب فيه أن

تكفير رجل من رجال الاسلام بحكم الشرع والقانون وإخراجه من حظيرة الامة المسلمة لا يتعلق بهذا المقام ، فان الحاجة فيه إلى الحيطة والتأني شديدة جداً ، ولست الآن بصدد أن أذكر لكم ذينك الايمان والاسلام اللذين تترتب عليهما الأحكام والقضايا الفقهية في هذه الدنيا ، وإنما أنا بصدد ذكر ذينك الايمان والاسلام اللذين ينفعان أو يضران صاحبهما عند الله يوم القيامة ، وعليهما تترتب النتائج الأخروية . فانك إذا ضربت صفحاً عن القانون المجرد ، ونظرت بعين الحقيقة والواقع ، وجدت انه حيثما كان السقم في استسلام المرء لربه وتفويضه أمره اليه في أعماله ، وحيثما كان رضا نفسه مجافياً لرضا الرب تعالى ، وحيثما كان مكباً على اشغال وأعمال غير السعي في سبيل اقامة الدين ، وحيثما كانت جهوده ومساعيه تصرف في سبيل غير سبيل الله تعالى ، كان إيمانه مصاباً بالنقص والضعف . ومن الظاهر طبعاً انه لا يمكنه أن يشيد بناء التقوى والاحسان على أسس من الايمان والاسلام غير راسخة ، ولو حاول أشد المحاولة في تشبيه ظاهر صورته وزيه بصور المتقين وأزيائهم والتمشي على أقدامهم في بعض أعمالهم . فالصور الظاهرة الخلابة إذا كانت خالية من روح الحقيقة ، فانما مثلها كمثل رجل بالغ

الغاية في الجمال ، أُبقي جسدهُ على الأرض في زي مزخرف مبرقش بعد ما فارقته روحه . فان انخدعتَ بظاهر هذا الجسد الملقى على الأرض وعلقت به بعض آمالك ، لا تلبث أن تنكشف لك الحقيقة وتبوء بالخيبة والخسران في أول اختبارك في عالم الواقع ، فهناك تعلم علم اليقين أن رجلاً دميماً إذا كان حياً قوياً خير من رجل بالغ الغاية في الجمال والحسن إذا فارقته الروح . نعم ! من اليسير عليك أن تخدع نفسك بالصور الظاهرة الخلابة ، ولكنه لا يمكنك أن تترك بذلك أي أثر في عالم الواقع ، أو تنال وزن قطمير في كفة ميزان الله تعالى يوم القيامة ، فان كنت لا تنخدع بالظاهر ولا تريد إلا دينك التقوى والاحسان الحقيقيين اللذين ينفعانك في إعلاء كلمة الدين في الدنيا وترجيح كفة الخير في الآخرة ، فاعلم علم اليقـــين أن طبقتي التقوى والاحسان العاليتين لا ترتفعان إلا إذا كان أساس الايمان راسخاً متأصلاً وأصبح الاسلام العملي – أي الطاعة والانقياد لله عملاً – دليلاً ساطعاً على رسوخه وتأصله .

التقوى :

ولكم أن تجتهدوا في فهم التقوى وإدراك معناها قبل

أن تتناولوا ذكر تفاصيلها . فما التقوى ، في حقيقة الأمر ، بعبارة عن زي مخصوص وهيئة معينة وطراز للمعيشة بعينه ، وإنما هي عبارة عن حال النفس التي تتكون وتتولد من خشية الله تعالى والشعور بالتبعة وتظهر وتتجلى في كل ناحية من نواحي الحياة ومظهر من مظاهرها . فالتقوى الحقيقية هي أن يكون قلب المرء مستنيراً بخشية الله والشعور بعبوديته ، وأن يكون وعيه للقيام بين يدي ربه والمسؤولية أمامه يوم القيامة شديداً قوياً ، وان يدرك ادراكاً تاماً قوياً أن ليست هذه الحياة الدنيا إلا مضماراً لامتحانه حيث قد بعثه الله تعالى ومتعه إلى حين من الزمن ، ولا تنحصر القضية في مستقبله الدائم إلا في شيء واحد وهو : كيف يستخدم قواه وكفاءاته المختلفة في هذا المضمار للامتحان وكيف يكون تصرفه في ما أوتي من المال والمتاع حسب المشيئة الربانية ، وماذا يكون من معاملته للذين تتصل بهم حياته من مختلف الجهات ؟ فكل من نشأ فيه هذا الحس وذلك الشعور ، فقد تنبه ضميره وزاد شعوره الديني جلاء وأصبح يحيك في قلبه كل ما لا يوافق حب الله تعالى ، وصار يحاسب نفسه : ماذا ينشأ فيه من الميول والرغبات

وفيمَ يقتل أوقاته ويصرف مواهبه وقواه من الاشغـال ، وأخـذ يكف نفسه عن الوقوع في المشتبهات فضلاً عن المنكرات والمحظورات الصريحة الواضحة ، وأجبره ما في نفسه من الشعوب بالواجب على القيـام بجميع الأوامر والواجبات بكل طاعة وامتثال ، واثرت فيه خشيته لله أبلغ تأثير ، حتى لتكاد تتزلزل اقدامه عندما يخـاف على نفسه من الاجتراء على حدود الله وأصبحت من ديدنـه المحافظة على حقوق الله ، وحقوق عبـاده في الأرض ، ووجل قلبه من أن يأتي بشيء يخالف الحق والصدق.

وهذه الكيفية والحالة لا تظهر في حياة الانسان بصورة خاصة أو في نطاق للعمل ضيق محدود ، بل هي تستولي على منهج فكرته وتتجلى في ماجريات حياته بأسرها ، وينشأ فيه بموجب تأثيرها من السيرة الحنيفية والخلق النزيه الطاهر ما لا يوجد فيه إلا الصفاء والطهارة والنظافة بطراز مخصوص في جميع وجوهه المختلفة. أما الذين لم تكن كلمة « التقوى » عندهم إلا عبارة عن اتباع المرء لبعض صور معينة ومواظبته على بعض طرق معلومة وافراغه ظاهرة - بطرق متصنعة غير فطرية - في قالب مخصوص ، فهناك تجدهم اشداء في المواظبة على صور التقوى هذه التي قد تمرنوا وراضوا عليها

أنفسهم بغاية من الاجتهاد والكد والاهتمام ، ولكن نجدهم في الوقت نفسه يظهر من نواحي حياتهم الأخرى من الأخلاق ومناهج التفكير وطراز العمل وطرق السعي والجد ما لا يلتئم ولا يتوافق مع مقتضيات الايمان البدائية فضلاً عن مقام التقوى الأسمى . وهذا كما قال السيد المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بلغته الخاصة : « أيها القادة العميان الذين يغصون من البعوضة ويبلعون الجمل »[1].

ولك أن تدرك هذا الفرق بين التقوى الحقيقية والمتصنعة بأن أضرب لك مثلاً رجلين أحدهما يشعر بالنظافة والطهارة شعوراً كلياً ، وفيه ذوق بالغ في الصفاء والذكاء ، فهو يكره في نفس القذر ولو كان في أي نوع من أنواعه أو شكل من أشكاله ، ويؤثر نفس الطهارة ويرغب فيها ولو لم يكن في وسعه الاحاطة بجميع مظاهرها. افيستوي هو ومن ليس عنده أي شعور بالطهارة ولكن يحمل بيده فهرساً مطولاً لأسماء طائفة من الأقذار والأدناس قد استنسخه من هنا أو هناك ، فيتجنب تلك الأقذار والأدناس التي اندمجت في هذا الفهرس أشد تجنب ، ولكنه متلوث بكثير من الأدناس المختلفة التي

---

(١) انجيل متى الباب ٢٣ الآية ٣٤ .

هي أشد وأغلظ من التي يتجنبهـا ، بمجرد انها لم تندرج في هذا الفهرس لسبب من الأسباب .

وليس هذا الفرق الذي أنا بصدد بيانه لك في هـذا المقام بفرق نظري فحسب ، بل انك لتراه ملموساً متجلياً بعيني رأسك في حيـاة اولئك الذين طبقت سمعة ورعهم وتقواهم الآفاق ، يبالغون في الاهتمام بالجزئيات الشرعيـة والمحافظة عليها حتى أنهم يفسقون كل من كان في لحيتـه شيء من القصر عن ذلك القدر المخصوص الذي قد عينوه لطول اللحية ، ويتوعدون بدخول النار كل من أسبل ازاره إلى أسفل من كعبيه قليلاً ، ويكادون يعدون الانحراف عن اتباع الأحكام الفرعية لمذهبهم الفقهي خروجاً من دين الله. هذا في جانب ، وبجانب آخر قد أسرفوا إسرافاً شديداً في اغفالهم لأصول الدين وكلياته ومبادئه الأساسية ، حتى لقد جعلوا حياة المسلمين بأسرها قائمة على الرخص الشرعية والمصالح السياسية واخترعوا من الحيل والمكائد لاعراضهم عن بذل شيء من جودهم في سبيل إقامة الدين ما لا يأتي عليه الاحصاء ؛ والذين هم باذلون فيه جل همهم ومساعيهم أن يرسموا للمسلمين خطة « العيشة الاسلامية » تحت غلبة الكفر وسيطرته واستيلاء نظامه ، وهم الذين أقنعت زعامتهم وامامتهم

عامة المسلمين بأنهم يستطيعون أن يعيشوا « عيشة دينيــة » في نطاق ضيق ويبرئوا ذمتهم من جميع مقتضيات الدين ولو كانوا مغلوبين على أمرهم تحت نظام غير اسلامي ، وبل ولو كانوا باذلين في سبيل خدمته مهجهم وأرواحهم وليس لهم وراء ذلك مطمح يجــاهدون في سبيله ويسعون وراء تحقيقه . وأشد من ذلك وأدعى إلى البكاء والويل انه إذا تجرأ أحد وعرض على هؤلاء القوم مقتضيات الدين الحقيقية وحاول لفت أنظارهم إلى السعي في سبيل اقامة الدين ، فانهم لا يقتصرون على أن يصعّروا خدودهم ولا يعيروا لقوله شيئاً من الاهتمام والعناية ، بل لا يذرون شيئاً من التعلات إلا أتوا به ليتقاعسوا عن هذا السعي هم أنفسهم ، ويصدوا عنه غيرهم من المسلمين ، أوَليس من العجب العجاب ان كل ذلك لا يمس ورعهم وتقواهم في قليل ولا كثير ؟ ولا يكاد يشك أولو العقلية الدينيـــة في كمال تقواهم أصلاً ؟ وكذلك لا يزال الفرق بين التقوى الحقيقيـة والمتصنعة يبدو في صور ومظاهر أخرى كثيرة أيضاً ويسهل عليك إدراكـــه إذا كان التصور الجوهري للتقوى واضحاً غير مبهم في ذهنك .

ولا يذهبن بكم سوء الظن بما قلت إلى أنني أريـــد الاستخفاف بمــا نص عليه في الحديث النبوي من الآداب

والاحكام المتعلقة بالهيئة الظاهرة والزي والملبس وآداب المعيشة ، ومعاذ الله أن أتجرأ على مثل هذا الرأي أو يخطر لي ذلك على بال . والذي أريد القاءه في روعكم أن ملاك الأمر وجوهره هو حقيقة التقوى لا مظاهرها الملموسة هذه . فكل من نشأت وتأصلت في قلبه حقيقة التقوى فقد اصطبغت حياته كلها بصبغة من الحنيفية والاستقامة وأصبحت حياة اسلامية خالصة ، ولا يزال الاسلام بشموله الاتم يبدو ويتجلى شيئاً فشيئاً في أفكاره وعواطفه وميوله وذوقه الشخصي وانقسام أوقاته ومصارف مواهبه وطرق سعيه وكفاحه ومنهاج عيشته ومكسبه وانفاقه وما اليها من نواحي حياته الدنيوية الأخرى . أما إذا عكستم الأمر وآثرتم المظاهر على الحقيقة وبالغتم في العناية بها فوق ما تستحقه ، وأبيتم إلا الامتثال لبعض الاحكام والاوامر الظاهرية بطريقة غير فطرية من غير أن تلقوا في الأرض بذراً للتقوى الحقيقية وتتعهدوه بالسقي ، فلن تبوءوا إلا بالنتائج نفسها التي ذكرتها لكم آنفاً . ففي الصورة الأولى يحتاج المرء إلى غاية من الصبر والاناة والتريث ، فان النتائج فيها تتدرج في النماء وتتأخر إلى مدة من الزمن . وذلك كما تشاهدون في بذرة تلقونها في الارض ، فان الشجرة التي تنبت منها

لا تكبر وتتكمل وتؤتي ثمارها وأزهارها في يوم أو يومين ، بل يمضي عليها مـــا يمضي من السنين الطوال العديدة . فلذا يمل هذه الصورة ويشمئز منها الذين في طبعهم النزق والاستعجال . أما في الصورة الثانية ، فان النتائج لا تلبث أن تتمثل أمام أعينكم بكل سرعة وبكل سهولة . وذلك كما تنصبون في الارض قطعة من الخشب تشبه الشجرة في هيئتها وصورتها الظاهرة وتعلقون بها من الاوراق والأزهار والاثمار ما يجملها في أعين الناظرين . ومن ثم تجدون هذه العملية الثانية اليوم أكثر رواجاً وانفق سوقاً من الأولى في الاندية والمحافل . ولكن الحق أن الآمال والأماني التي تحققها شجرة فطرية لا يمكن أن يأتي ولا عشر معشارها مـــن مثل هذه الأشجار المصطنعة .

الاحسان :

هذا ، وهيا بنا الآن لنتناول في الختام « الاحسان » فانه أعلى طبقات الاسلام وأرفعها كما عرفتم . فالاحسان في الحقيقة ، هو عبارة عما يجعل المرء متفانياً في الاسلام من صلة قلبية بالله ورسوله وحب متأصل ووفاء صادق وبذل للمهج وتضحية بالنفوس والنفائس . فتصور التقوى الأساسي هو خشية الله وخوفه ، وهو الذي يستحث المرء على اتقاء

سخطه . وأمـا الاحسان فتصوره الأسامي هو حب الله الذي يحمل المرء ويحضه على ابتغـاء مرضاته . ولـكم أن تدركوا ما بين التقوى والاحسان من الفرق بأن أضرب لـكم مثلاً موظفي حكومة من الحكومـات ؛ فمنهم من يقومون باداء ما يلقى اليهم من الواجبات بكل شعور بالتبعة واجهاد النفس ويواظبون على جميع ضوابط الحكومـة وقواعدها ولا يأتون بشيء يخالف مصلحة من مصالحها ويجلب عليهم اعتراضها . وبازائهم طبقة أخرى من المخلصين الصادقين الأوفيـاء الذين ينتصرون للحكومة بأنفسهم وأموالهم ولا يقتصرون على اداء ما يلقى عليهم من الواجبات، بل لا يزالون يجيلون تفكيرهم ويصرفون همتهم في إيجـاد طرق ومناهج للعمل يرقون بها صالح الحكومة ويعلون بها كلمتها ، فيعملون ويجتهدون بموجب هذه النزعة أكثر مما يطالبون به . وكلما يرون شيئاً يهدد سلامة الحكومة ، يضحون في سبيل الدفاع عن كيانها بما في وسعهم من الأنفس والأموال والأولاد . وكلما يجدون القانون تنقض قواعده يشعرون بألمه في صدورهم . وكلما يشمون رائحة للغدر يقلق بالهم ولا يدخرون ما في وسعهم من المهج والأرواح في اطفاء شعلته واجتثاث جذوره من الأرض . وإنما يكون أحلى أمانيهم ، وهم في سبيله

يسعون ، أن تكون دولتهم مرهوبة المقام مرفوعة الرأس من بين دول العالم كلها ، ولا يبقى صقع من أصقاعها إلا ويكون علم دولتهم مرفوعاً في أجوائه . فهؤلاء هم محسنون للحكومة وأولئك متقون لها . ولا شك ان المتقين يرفعون درجات وتدرج أسماؤهم فى جدول أسماء الموظفين الأوفياء للحكومة ، إلا ان المحسنين هم الذين ينعمون بأعلى الدرجات التي لا تتطلع اليها أعناق المتقين ولا غيرهم. ولكم أن تقيسوا على ذلك المتقين والمحسنين في الاسلام . فالمتحلون بالتقوى ، وإن كانوا رجالاً يوثق بهم ويعتمد عليهم ، ولكن قوة الاسلام وحيويته الجوهرية إنما تتجمع وترتكز في المحسنين وحدهم ، ولا ينهض بالمهمة التي يريدها الاسلام في هذا العالم إلا هذه الطبقة من المحسنين وحدها .

فاذا كنتم قد أدركتم حقيقة الاحسان هذه ، فتفكروا في شأن أولئك الذين يرون بأم أعينهم أن دين الله قد رزيء وغلب على أمره بيد الكفر وأهله ، وان حدود الله ما انتهكت واعتدي عليها فحسب ، بل يشاهدون أنها تكاد تنعدم من الوجود لأجل غلبة الكفر ؛ وان شريعة الله قد أهملت ونبذت وراء الظهور لا عملاً فقط بل بموجب القانون أيضاً ، وان أرض الله قد اعتلت فيها كلمة أعداء

الله ، ويشاهدون أن المجتمع الانساني العام قد دب دبيب الفساد في أخلاقه ومدنيته بموجب غلبة نظام الكفر ، بل الامة الاسلامية نفسها قد رزئت ولا تزال تُرزأ بكثير من الضلالات الخلقية والعملية بغاية من السرعة والشدة ، – يرون كل ذلك ويحسونه بين كل آونة وأخرى . ولكن لا تكاد تتنغص عليهم حياتهم ، ولا يكاد ينبض بهم عرق الغيرة حتى يقوموا للعمل على أن يستبدلوا حياة صالحة راشدة بهذه الحالة المخجلة الحاضرة . بل الأمر انهم بالعكس من ذلك يسعون دائماً ويستخدمون كل ما أوتوا من الذكاء والفطنة في اقناع عامة المسلمين – مبدأ وعملا – بغلبة نظام الكفر وسيطرته عليهم . فكيف يمكن أن يعد أمثال هؤلاء من طبقة المحسنين ، وكيف يمكن لهم أن يتمتعوا بمرتبة الاحسان العليا مع هذا التهاون العظيم في أمر الله ، ويظلوا مستمتعين بمجرد انهم يقومون الليالي ويؤدون صلاة الضحى ويصرفون أعمالهم في الاذكار والاوراد والرياضات الصوفية ويلقون دروساً للقرآن والحديث ويبالغون في الاهتمام بفروع الفقه والسنن غير المهمة ويدربون أتباعهم في زواياهم التي بنوها لتزكية النفس على فن التدين الذي إن كان يشتمل على لطائف الحديث والفقه والتصوف ونكاتها ،

فانه لا يشتمل على لباب الدين وقوام أمره ، الا وهو عدم الاستسلام لحاكمية غير الله وبذل النفوس والنفائس في سبيل اقامة الدين واعلاء كلمة الحق .

وهذا الفرق بين الوفي الناصح والعدو الغادر لا تكاد تخلو منه حتى ولا عامة الدول والامم الدنيوية في الارض فان قامت ، مثلاً ، في بقعة من بقاع الدولة طائفة من الناس خارجة عليها أو تسلط عليها العدو من الخارج ، فالذين يستجيزون سلطة الاعداء والغادرين أو يطمئنون اليها اطمئناناً ويصالحونهم على شروط تنم على ذلتهم واستكانتهم أو يشكلون تحت اشرافهم نظاماً للبلاد لا تكون أزمة الأمور وخزائن البلاد إلا بأيدي هؤلاء الاعداء ويقتنعون في أنفسهم بجانب من الحقوق والتصرفات الجزئية ، لا تجد دولة من دول الارض أو أمة من أممها تعـــد أمثال هؤلاء الناس الذين يميلون إلى العدو ويجنحون له ، من رجالها المخلصين الامناء الصادقين ، ولو كانوا بالغين أقصى الغاية في التشدد بزيهم القومي واتباع قانونهم القومي في شؤونهم الجزئية . وما هي البلاد التي خرجت من حوزة ألمانية بعد الحرب العالمية الثانيـة ماثلة أمامكم ناطقة بصحة ما قررت . أفرأيتم بماذا يعامل فيها

الآن أولئك الأقوام من أهلها الذين مدوا إلى ألمانية يد المصالحة والتعاون عندما استولت على بلادهم ؟ فهؤلاء الأمم والدول الغربية اللادينية ليس عندها إلا مقياس واحد لاختبار الوفاء والاخلاص ، وهو مزاحمة الرجل لسلطة العدو على بلاده وعمله في سبيل القضاء عليها وبذله الجهد المستطاع في ارجاع تلك السلطة التي هو مدعي الوفاء بها . أفمن حسبانكم اذن أن الله تعالى أقل من رجال الدنيا الناقصي العقل والبصيرة هؤلاء تمييزاً بين أوليائه وأعدائه . أفتراه ينخدع بطول اللحى وعملية السبحات والأشغال والأوراد والوظائف والتطوعات والمراقبات وما اليها من الأعمال الأخرى ويعدكم من أوليائه ؟

أمثلة لسوء التفاهم في هذا الباب وإزالتها :

سادتي الكرام ! الآن ، وأكاد أن أنتهي من كلمتي هذه ، أريد أن أبين لكم شيئاً واحداً مهماً . وهو أنه قد سيطرت على أذهان عامة المسلمين اليوم أهمية الفروع والظواهر بسبب كثير من التصورات والنظريات الخاطئة الضيقة حتى أصبحوا لا يكادون يبرحون هذه المسائل التافهة والظواهر السفسافة مهما بذلتم من جهودكم وحاولتم بكل وسيلة لفت أنظارهم

إلى أصول الدين وكلياته وجوهر التدين والخلق الاسلامي الحقيقي ، فكأنهم قد جعلوا هذه الفروع والمسائل الجزئية أصلاً لدينهم وأساساً يشيدون عليه بنيانه ، وهذا الوباء الشامل نرى كثيراً من أعضاء جماعتنا وأنصار دعوتها قد تأثروا به بعض التأثر. وقد استنفدت كل جهدي في ما مضى في إفهامهم وتلقينهم حقيقة الدين وما فيه لمثل هذه الأمور من أهمية وما يستحق التقديم وما يستحق التأخير من تعاليمه المتشعبة. وكذلك قد بلغني أن من الناس من يرون أن الجماعة ينقصها ذلك الشيء الذي يعبرون عنه «بالروحانية» على حين انهم لا يكادون يحددون بأنفسهم ما يريدون بتلك الكلمة من معنى. ومن ثم يرون أن يختاروا من الغاية ومنهاج السير اليها نفس ما اختارته الجماعة نفسها ، ثم يرجعوا لتزكية النفوس وتربية الروحانية إلى الزوايا. والذي تم عنه هذه الأفكار والآراء ضرورة أنه لم ينضج بعد في الناس فهم الدين وإدراك تعاليمه بالرغم مما بذلنا لهذا الغرض من الجهود المتتابعة. وها قد بينت لكم آنفاً «الايمان والاسلام والتقوى والاحسان» فان كنتم ترون في هذه الكلمة شيئاً اختلقته من تلقاء نفسي معرضاً عما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ، فلكم أن تنبهوني عليه وتهدوني

إلى الصواب في أمره . وأما إذا كنتم تسلمون وتعترفون أن كل ما بينت من حقيقة هذه الكلمات الأربع هو موافق لما جاء في الكتاب والسنة ، فتفكروا هل يمكن أن توجد تلك الروحانية التي أنتم في صدد البحث عنها في أماكن لم تتحقق فيها مقتضيات الدين ، ولم تتأصل فيها جذور التقوى والاحسان ؟ أما فروع الشرع التي تعدونها من مطالب الدين الأولية ، فأرى أن أكرر لكم بيان منزلتها الحقيقية في الدين بشيء من الايضاح والتفصيل ، حتى أتبرأ مما ألقي على كاهلي من تبعة البلاغ الثقيلة .

ولكم أن تتفكروا قبل كل شيء لماذا ولأي غرض أرسل الله تعالى رسله وأنبياءه إلى هذه الدنيا ؟ وأي شيء كان ينقص الدنيا حتى بعثهم لإيجاده فيها ؟ وماذا كان فيها من فساد وأرسلهم لرفعه والقضاء عليه ؟ أفكان ذلك أن الناس ما كانوا يعفون لحاهم ، فأرسل الله تعالى رسله لدعوة الناس إلى إعفائها ؟ أم كانوا يسبلون أزرهم فأمر الله أنبياءه أن يدعو الناس إلى الكف عن ذلك ، أم لم تكن هذه السنن التي تهتمون بها أشد اهتمام ، جارية في الأرض ، فجاءت الرسل لاجرائها وترغيب الناس فيها ؟ ولعمري إنكم إذا تأملتم في هذه المسائل ، شهدت لكم قلوبكم شهادة ناطقة

انه لم تكن مفاسد الدنيا وسيئاتها من هذا القبيل ، وما كان بعث الرسل لغرض من هذه الأغراض ، فاذا لم يكن الأمر كذلك ، فتفكروا من أي نوع كانت تلك المفاسد والمنكرات التي كانت الدنيا مبتلية بها فجاءت الرسل لازالتها واجتثاث جذورها ، وماذا كانت تلك الحسنات التي كانت دعوة الأنبياء إلى اقامتها وتحلية الحياة البشرية بمقتضياتها؟ أفيسعكم أن تجيبوا على كل ذلك إلا بأن المفاسد والمنكرات الحقيقية التي كانت شائعة في الدنيا ، فجاءت الرسل والانبياء لتقليص ظلها والقضاء عليها . إنما كانت : انحراف الناس عن عبودية الرب تعالى وطاعته ، واتباعهم للقوانين والاصول الوضعية وعدم شعورهم بمسؤوليتهم بين يدي الله تعالى يوم القيامة ؟ فمنها نجَم قرن الاخلاق الفاسدة ، وراجت في حياة العباد الاصول الخاطئة المضلة وطبّق الفساد مشارق الارض ومغاربها . ثم كان الغرض من بعث الرسل وارسال الانبياء ان ينشأ في الناس الشعور بعبوديتهم وولايتهم لله ومسؤوليتهم بين يديه يوم القيامة ، وترقى الاخلاق الفاضلة ويقام نظام الحياة الانسانية على تلك الاصول والدعائم التي بها ينمو وينهض الخير والصلاح ويتقلص ظل الشر والفساد

وتنتكس رايتها ؟ فانما كان هذا هو الغرض الوحيد من بعث الرسل والأنبياء ، وللدعوة اليه جاء أخيراً خاتمهم وسيدهم وسيد البشر أجمعين محمد بن عبد الله ﷺ .

ثم انظروا قليلاً في ما تحرى النبي ﷺ من التدرج والترتيب للبلوغ إلى هذه الغاية ؟ فقد قام بدعوة الناس – أولاً وقبل كل شيء – إلى الايمان وأحكمه في قلوبهم وأتقنه على أوسع القواعد وأرحبها ، ثم نشّأ في الذين آمنوا تعليمه وتربيته طبقاً لمقتضيات هذا الايمان تدرجاً ، الطاعة العملية – أي الاسلام – والطهارة الخلقية – أي التقوى – وحب الله والولاء له – أي الاحسان – ثم شرع بسعي هؤلاء المؤمنين المخلصين المنظم المتواصل في تحطيم النظام الفاسد للجاهلية القديمة واستبدال نظام صالح به ، قام على القواعد الخلقية والمدنية المقتبسة من القانون الالهي المنزل من الرب تعالى . ثم لما أصبح هؤلاء الذين آمنوا به ولبوا دعوته من كل وجهة – بقلوبهم وأذهانهم ونفوسهم وأخلاقهم وأفكارهم وأعمالهم – مسلمين متقين محسنين بالمعنى الحقيقي وانصرفوا بأنفسهم إلى ذلك العمل الذي ينبغي لعباد الله المخلصين الاوفياء أن ينصرفوا اليه إذن وبعد كل ذلك أخذ النبي ﷺ يرشدهم إلى ما يزين حياة المتقين المحسنين

من الآداب والعادات المهذبة في الهيئة والملبس والمأكل والمشرب والمعيشة والقيام والجلوس وما إلى ذلك من الشؤون الظاهرة الاخرى . وكأنني بـه فتت الذهب ونقـاه من الاوساخ والاقذار أولاً ، ثم طبع عليه بطابع الدينار ، ودرب المقاتلين أولاً ثم كساهم زي القتال . وهـذا هو التدرج الصحيح المرضي عند الله في هذا الباب كما يبـدو لكل من تأمل القرآن والحديث وتبصر فيهما . فان كانت كلمة أتباع السنة النبوية عبارة عن اختيار المرء خطة العمل التي كان قد اختارها النبي ﷺ تحت الهداية الربانية اكمالاً لمشيئة الرب تعالى وتبرئة لذمته من مقتضيات العبودية ، فليس من السنة في شيء أن تكسوا ملابس المتقين وتحاولوا افراغهم من قالبهم الظاهري المتصنع حتى يتشبهوا بهم في بعض أعمالهم الرائجة الشهيرة المرغوب فيها بين عامة الناس من غير أن تخلقوهم بأخلاق المؤمنين والمسلمين والمتقين والمحسنين وتحلوهم بصفاتهم الحقيقية . من الغش والخداع ان تضربوا على قطعات من النحاس والرصاص بطوابع الدينار وتنفقوها في السوق ، أو تكسو الناس ملابس الجنود وتبوؤوهم مقاعد القتال في ساحة الحرب من غير أن تدربوهم على صفات البسالة والشجاعة والوفاء والإيثار والتضحية . فمن نتائج هذا الغش

والخداع انه لا تروج اليوم دنانيركم الزائفة في أسواق العالم ولا يرجع اليكم جنودكم الموهون بشيء من الظفر والانتصار في ميدان الحرب . أفتعلمون أي شي هو أعلى قدراً وأرفع منزلة عند الله ؟ فلتفرضوا أن لديكم رجلاً يؤمن بالله ايماناً صادقاً ، ويشعر بالمسؤولية شعوراً تاماً ويحافظ على حدود الله أشد محافظـة ويؤدي كل ما عليـه من واجب الولاء لله والاخلاص والتضحية في سبيله ، الا انه ناقص الحظ في زيه الظاهر وأحط كعباً في الآداب الظاهرة ، فأقل ما يكون له منزلة عند الله انه خادم وفيّ صالح ولكن فيه بعضٌ من سوء الادب ، وربما لا يتمكن بسبب ذلك من نيـل المراتب العالية والدرجات الرفيعة عنده . ولكن هل تحسبون مع قلة عنايته بالزي الظاهر ان الله ربه وسيده يحيف عليه ويبخسه الاجر على هذا الوفاء والاخلاص والتضحية ويصليه النار بمجرد انه لم يكن جميل الهيئة حسن الآداب ؟ ثم افرضوا ان لديكم رجلاً آخر قد بلغ الغاية في الاهتمام بزيه الجميل الشرعي ويراعي أشد الرعاية في التزامه بالآداب الشرعية ، ولكنه ناقص الحظ في ولائه لله وشعوره بالتبعية وغيرته على الايمان ، فماذا يكون من تقدير الله لهذا الكمال الظاهر مع هذا التفريط العظيم والنقص البالغ ؟ وليست هذه بمسألة من

المسائل القانونية المعضلة تحتاج لحلها والوقوف عليها إلى تصفح الكتب الضخمة ، وإنما يعلم كل فرد من أفراد البشر بفضل عقله السليم أي هذين الامرين يستحق القدر والإجلال عند الله . حتى إن الذين لم يؤتوا إلا قليلاً من العقل وملكة التفكير من أهل الارض ليدركون بكل سهولة انه لا يستحق أي تقدير أو اجلال في حقيقة الامر . وها هي الحكومات الغربية ماثلة بين أيديكم بما في أهلها من الافتتان بالازياء الظاهرة والاهتمام بالآداب والعوائد البادية للعيان ، أفتعلمون ما هو أجل قدراً وأرفع منزلة عندهم ؟ انهم إذا وجدوا ضابطاً من ضباط جنودهم يعمل الفكر والروية ويستفيد القوى الجسدية والفكرية في اعلاء كلمتهم ورفع علمهم ولا يدخر شيئاً من مساعيه وجهوده ولا يأبى التضحية بنفسه ونفيسه عندما يبلغ الأمر مبلغ الجد يبالغون في اجلاله ورفع مقامه ولو بلغ في الجلافة وقلة الادب مبلغاً عظيما : لا يحلق لحيته إلى أيام ويلبس ملبساً غير منسق ولا يعرف آداب الاكل والشرب ويجهل فن الرقص جهلاً تاماً . وبالعكس من ذلك عندما يرون ضابطاً آخر من ضباطهم يكون أمة وأسوة — في نظرهم — في زيه وهندامه وحسن آدابه

وتحليه بالعوائد والرسوم الرائجة في مجتمعهم ولكنه ناقص الحظ في ولائه وتضحيته في سبيل الدولة ويؤثر نفسه واستراحته ومصالحه الذاتية على مقتضيات الغيرة القومية عند ساعة الجد والعمل ، فلا يتحرجون من محاكمته العسكرية فضلاً عن أن يرفعوا درجاته ويبالغوا في اكرامه وتبجيله . فاذا كانت هذه حال رجال الدنيا ناقصي العقل والمعرفة ، فما ظنكم بربكم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ؟ أفيستوي عنده الذهب والنحاس ، وينخدع بطابع الدينار على وجه الناس، ويعد الذهب فلساً إذا كان مطبوعاً بطابع الفلس؟

ولا يحملنكم ما بينت آنفاً على الظن بأني بصدد نفي المحاسن والمحامد الظاهرة أو الاستخفاف بتلك الأحكام والأوامر التي وردت بها السنة – على صاحبها الف تحية وسلام – في شأن اصلاح وجوه الحياة الظاهرة وتهذيبها . كلا ! بل الذي أقول به واعتقده أن العبد المسلم يجب عليه الامتثال لكل ما أمر به الله ورسوله ﷺ . وكذلك أعتقد من نفسي ان الدين يريد أن يهذب ظاهر العبد كما يريد أن يهذب باطنه ، ولكن الذي أريد أن أرسخه في أذهانكم وألقيه في روعكم بوجه خاص في هذا المقام أن

باطن العبد واصلاحه وتهذيبه أرجح وأقدم من ظاهر العبد واصلاحه وتهذيبـه . فنوروا باطنكم بجوهر الحقيقة قبل أن تفرغوا ظاهركم في قالب الحقيقة . ولكم أن تتفكروا وتستنفدوا قواكم في التحلي بتلك الخصال والصفات التي هي جديرة بالقدر والاجلال عند الله في واقع الأمر والتي مـا جاءت الرسل والأنبياء إلا لترويجها وتنميتها . أما الزينة الظاهرة فاني واثق بأن تتولد بنفسها نتيجة لهذه الصفات الباطنة . وأما إن بقي فيها شيء من النقص ، فيمكن الاهتمام بتداركه عند اكمال المراتب والمراحل .

سادتي ورفقائي ! قد القيت بين أيديكم هذه الخطبة المسهبة لأبين لكم الأمر الحق بكل ايضاح وتفصيل.وذلك اني أريد أن أبرىء ذمتي أمام الله يوم القيامة من واجب شهادة الحق . فان الحياة لا عبرة بها ، ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً ولا تدري نفس بأي أرض تموت . واني أرى من الواجب على نفسي أن أبرىء ذمتي من مسؤولية البلاغ ، فاستوضحوني أيها الاخوان ان كان لديكم أمر يحتاج إلى مزيد الشرح والايضاح . وإن كان قـد فرط مني شيء يخالف الحق ويضاده ، فردوه عليّ . وان كنت قلت

الحق ، فاشهدوا به أمام الله والملائكة والناس أجمعين .

(الأصوات : إنا شاهدون . إنا شاهدون .....) .

وفي الختام أدعو الله تعالى أن يجمعنا على الخير ويثبت أقدامنا ويوفقنا لفهم دينه فهماً صحيحاً ويهدينا إلى اداء جميع مطالبه ومقتضياته طبقاً لهذا الفهم .

أللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

★★★

الفهرس

الاسس الاخلاقية - المودودي

صفحة